عبدالله التعزي

حرية الأبواب المغلقة

أثر

حرية الأبواب المغلقة

حرية الأبواب المغلقة
عبدالله التعزي
الطبعة الأولى
2016-1437
ردمك: 978-9938-833-45-4

المملكة العربية السعودية- الدمام
تلفون : 00966505774560
الموقع الالكتروني : www.darathar.net
Email: info@darathar.net

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

عبد الله التعزي

حرية الأبواب المغلقة

رواية

"لك طريقك،
ولي طريقي،
أما الطريق الصحيح،
الطريق الوحيد،
فهو غير موجود"

نيتشه

١

أنظر إلى كومتي اللحم المغطاتين بملابس نسائية، وكأنني أراهما لأول مرة، وهما متكومتان بجوار بعضهما، بالقرب من ظل النافذة.

تجلســان متقاربتين، الأولى الأكبر حجمًا تســند رأسها إلى ظهر الكنبة الزرقاء التي تجلس عليها، أمــا الثانية، الأصغر حجمًا، فقد كانت شبه نائمة بعد أن تراكم بعض الظلام أمام عينيها.

يصل صوت تنفســهما المنتظم كحفيف بسيط يتسلل مع الضوء القاتم إلى أن يصطدم بثقب الباب، بجوار شاشة التلفزيون بضوئها الشاحب، حيث أقف خلف الثقب.

ســكون حركتهما يجعل من الصمت ارتفاعًا، ويشعرني بأنهما لم تتحركا من قبل. كنت، في الفــترة الأخيرة، أتأملهما ما بين المغرب والعشاء بطرف عيني من ثقب الباب، حتى لا يشعران بما في داخلي من احتقار، فهما كل نساء المملكة، والدتي وزوجتي!

٢

أنا في حياتي كلها لم أعرف سوى والدتي وزوجتي. لا أستطيع وصف شكل أي واحدة منهما الآن. لقد تراكمت الأيام عليهما، وكثرت الخطوات فيما بيننا، إلى درجة لم أعد أتبين تفاصيلهما بالتحديد.

ملامحهما تتشابه وإن اختلفت الروائح. لكنها مع الأيام تتداخل وتصبح رائحة واحدة، لها طعم صعب، ومن المستحيل تقبله بعد كل سنوات الحياة. ربما والدتي لها رائحة الطيبة، والكثير من القسوة المبعثرة في زوايا الأيام، تدفع إلى الحيرة منها ومن إيجاد تبرير لكل هذه القسوة حتى وأنا في هذا العمر.

لقد تخطيت الخامسة والثلاثين بشهر أو شهرين، ومع ذلك، في مملكة حياتي التي أعيش فيها، أُرغمت إلى أن اكتفيت بمعرفة امرأتين فقط. وهذا سهّل لي الكثير وجعلني أشعر بالوحدة مدى الحياة.

الاكتفاء كان اختياريًا، وذلك خوفًا من الله وناره العظيمة التي ستنتظرني بعد أن أموت. وأعتقد دائمًا أنها ستبدأ من القبر بعد أن أدفن مباشرة. ستفتح الطابونة، هكذا نسميها في مكة، ويبدأ الألم. لذلك قررت أن أكتفي من النساء بهما؛ والدتي وزوجتي. وفي

أحوال كثيرة، أجد أنني كنت على حق، فكل النساء في زمني هذا متشابهات. إما أن تكون أمًا لي مفروضة عليّ، أو أن تكون زوجة مفروضة علي أيضًا. لذلك اكتفيت بنسخة واحدة فقط من كل منهما.

كنت لا أحتاج سوى للوقت كي أتطلع إليهما لأرى إن كنت فعلاً أقف أمام ضوء نافذة الغرفة بجوارهما أم أن هناك أحدًا آخر سيتكلم معي من الشارع. لقد كان صمتهما مرعبًا، وكلامهما يؤدي بي إلى الصمت.

الصالة، في شقتي، مطلة على زقاق صغير داخلي. يذكرني بشوارع مكة القديمة. ولكننا في جدة، في البغدادية الشرقية، لنا شوارعنا الصغيرة أيضًا. كان شارعنا معتمًا ويبدو دائم التحفز. فقد تكومت على أطرافه أتربة ناعمة موجودة طوال الوقت، مستعدة للارتفاع عند هبوب أقل النسمات الخفيفة من الهواء، لذلك فهي معلقة في الهواء القريب من الأرض معظم أيام السنة، ليمتلئ هواء شارعنا بالغبار طوال النهار تقريبًا، وفي أيام، أثناء الليل. حتى عند مرور بعض السيارات المسرعة قليلاً، يرتفع الغبار أكثر ويصل إلى حلوقنا.

اليوم في الصباح، ذهبت إلى العمل وعدت بعد أقل من ساعتين. لم أشعر برغبة في العمل، فاعتذرت بعد أن وقعت على ورقة الدوام وعدت سريعًا أمام نظرات زملاء العمل الغامزة واللامزة. كان كل اهتمامي هو أن أعود إلى البيت وأجلس أمام جهاز (اللاب توب) وأواصل الكتابة لك يا دكتور. لقد سئمت العمل الممل وزملاء العمل الأشد مللاً.

في بداية العمل كان الدوام هو المتنفس الوحيد للكآبة التي أعيش داخلها في البيت. كنت دائمًا أصلي كما قالت لي والدتي، لأن الصلاة هي مفتاح الفرج. عندما سألتها عن معنى الفرج، كانت إجابتها حادة وبلا معنى مفهوم:

- الفرج هو الخروج من الهم.

كلمات والدتي دائمًا ترن في أذني كالأجراس أو كخرفشات الميكرفون قبل الأذان. استمتع بتذكرها في أوقات متباعدة، وأتناساها في معظم الأوقات. لم أتردد كثيرًا في الصلاة، فهي أحيانًا مريحة وفي أحيانٍ لا شيء يتغير حولي، وكأنني لم أتحرك والهم يقبع بداخلي كباب مغلق. لذلك كان العمل هو المنقذ والمنفذ الوحيد الذي أذهب إليه كل يوم.

لكن بعد أول سنة، اكتشفت أن العمل مثل البيت، ولكن بأشخاص مختلفين وبلا نساء، وباقي الكلمات والدعوات تبقى كما هي لا تتغير. حتى إن الحكايات أصبحت متشابهة.

المدير المسؤول عن التوجيه متزوج من ثلاث نساء، ويدعو كل الموجهين إلى الزواج. عندما عرف أنني متزوج منذ خمس سنوات، استغرب من تأخري بالزواج من امرأة ثانية! وأصبح في كل فرصة مناسبة وغير مناسبة يذكرني بوقت الحيض ووقت الولادة ووقت الزعل وأوقات كثيرة لا أتذكرها. لم أظهر له الفهم في البداية، ولكنه استمر ونظرات الخبث تصلني بقوة أشعرتني كثيرًا بأنني يجب أن أكون مكينة جنسية لها القدرة على العمل كل يوم ليلاً ونهارًا.

لم نكن نتكلم عن الأغاني الجديدة للفنانين الشباب الجدد أو لعبد المجيد عبد الله أو راشد الماجد، أو تسجيلات نادرة لأغاني

طـلال مداح أو محمد عبده. لقد كان الكلام عن الأغاني في أوقات الـدوام يميت القلب. والأغاني أصلاً حـرام وهذا مضيعة لوقت العمـل. وكنا في المقابل نقضي نصف وقـت الدوام في الكلام عن الزواج من امرأة ثانية، ومتعة الزواج من الثالثة، وحكايات جنسية كثيرة أخرى متفرقة.

لذلك تحولت متعتي إلى الشـارع عنـد ذهابي إلى العمل أو عند عودتي. كان الشارع هو السـبب الدائم لي في تلك الفترة للخروج مـن البيت ومن العمل. أجد في الوجوه الجديدة حولي متنفسًـا لي من السـأم. ولكن هذا أيضًا لم يستمر طويلاً، فبعد فترة أدركت أن الشارع مثل البيت أيضًا ولكن بلا نساء. (نفس) الكلمات و(نفس) الحكايات المتشـابكة والمنتهية بضرب المتأخريـن عن الصلاة، أو المتأخرين عـن إغلاق المحلات، أو المتحرشـين بالأولاد إلى آخر الحكايات التي لا تنتهي، عـن إقامات وخادمات وسرقات تافهة ومهمة. كلها أشـعرتني بأنني في نفس المكان، هناك في ركن البيت مع والدتي وزوجتي بجوار النافذة، بالقرب من شـحوب الضوء وكآبة ما قبل المغرب.

٣

نجحت اليوم في إخراج زوجتي من غرفة النوم إلى الأبد. تعاركنا كثيرًا ولأيام، ولكني نجحت في النهاية واحتليت غرفتي واستعدت كل هوائها. ساعدتني أنت يا دكتور.

أنت تعرف أنني عندما كنت أتردد عليك في عيادتك البيضاء، طوال السنتين الأخيرتين، لم تقل لي كثيرًا ولكنك في يوم طلبت مني أن أكتب كل شيء، ربما يساعدني هذا على الراحة ويقلل من حبوب الاكتئاب التي أصبحت أتناولها بكثرة، وأصبحت نتائجها لا تذكر.

فالصداع والخيالات والأصوات والروائح الكريهة كلها تتكاثر حولي، وأصبح من الصعب علي أن أجلس دون أن أكتئب. حتى أن الصمت أصبح رعبًا أهرب منه بسماعات (الآيباد) التي لا تفارق أذني طوال الليل والنهار. مرعب هذا الصمت القاتل، إنه دائمًا يسبق العذاب.

ترددت كثيرًا في الكتابة، ولكني اعتمدت على الله ثم الإنترنت والكثير من الكلمات والتصرفات الغريبة حولي. حتى إنني عندما نهضت اليوم كنت مبللاً بحروف متشابكة، وعرقي المتراكم على المخدة أشعرني بالغرق.

لذلك بدأت اليوم بالكتابة، وأعتقد أنني بدأت أيضًا بالتعرف

على أشـــيائي وبعض ملامحي والكثير من ذنوبي، وســـأنتهي منها كلها، إن استطعت، في أسرع وقت ممكن. لا أعتقد أن كل الكلمات التي في ذاكرتي والأحداث التي أمامي ستتركني أكتب باستمرار لا ينتهي.

٤

الآن الغرفة أصبحت مكتملة بعد خروج زوجتي منها. وجودي فيها بسيط ولا يسبب ألمًا، حتى السرير الذي في المنتصف ويحتل مساحة كبيرة من الأرض لا يتحرك. كل الأثاث ثابت داخل الغرفة. الباب وأنا فقط من يتحركان فيها.

كان صوت التلفزيون يأتي من الفراغ تحت الباب ومعه أصوات أخرى متفرقة. اقتربت من الباب الخشبي القديم. لم يتشقق بعد وإن بدا عليه التعب. أمسكت مفتاح قفله الكبير في المنتصف وتأكدت أنه مقفل. عندما أخرجت المفتاح، بدا ثقب الباب وكأنه نافذة صغيرة لن تقفل أبدًا. انحنيت ونظرت من خلاله. كانت الصالة بادية أمامي ووالدتي جالسة تشاهد التلفزيون كعادتها. بجوارها زوجتي متلحفة نكدها ونائمة. عدلت جسمي ووقفت على ركبتي كي أتمكن من مشاهدة محتويات الصالة كاملة من ثقب الباب. بدت كل المحتويات أمامي وكأنني أقف والباب مفتوح.

عدت بعدها إلى الطاولة وفتحت الكمبيوتر (اللاب توب) وبدأت في الكتابة كما قلت يا دكتور. تعجبني كلماتك القليلة وأنت تنظر إليّ، منذ أول زيارة لك قبل سنتين. ابتسامتك دائمًا تدفعني إلى نوع من الحرج فلا أنظر إليهما باستمرار. أجدني حائرًا في محتويات

عيادتك البيضاء، لا أعرف أين تستقر نظراتي إلى أن تعود إلى يدي، ثم أنظر إلى عينيك مرة أخرى لأجدك هادئًا مبتسمًا ولا تمل الانتظار.

اليوم تتالت الكلمات علي، وكتبت كثيرًا متنقلاً في الإنترنت بين فيس بوك وتويتر وبعض المنتديات. علّقت على بعض الأخبار في الجرائد. كان انهياري بلا حدود، متسلحًا بأحد الأسماء المستعارة الكثيرة التي أستخدمها. فقد حلمت البارحة بأحداث كثيرة ونساء أكثر، ولكني صحوت مفجوعًا بعد أن تأملت كل النساء في المملكة، واكتشفت أنهما اثنتان فقط. الأولى والدتي المتسلطة، والثانية زوجتي النكدية. والرجال، لم أتأملهم في الحلم ولكني وجدت نفسي نصفهم. وعندما صحوت مرة أخرى في اليوم التالي، أدركت أنني مستعد تمامًا لكل الكلمات القادمة.

٥

ربما يجب أن أقدم نفسي لشخصي حتى أعرفني وأتمكن من الوضوح أمامي. ولكنني لا أشعر برغبة في ذلك في هذه اللحظة، ولا تعنيني الشهرة. فكثيرًا ما سمعت أنها سلاح ذو حدين، وأنا لا أحب أن أتعامل مع الأسلحة.

أيضًا موضع الانتماء إلى القبيلة أو السكن في حارة، وحكاية الأصل والفصل لم أكن يومًا مهتمًا بها. ولكنها تباغتني بأهميتها في الدوائر الحكومية التي أراجعها، أحيانًا. وتصادفني أيضًا من بعض المدرسين والطلاب في الفصول الدراسية التي أحضرها. أغلب زملائي في التوجيه التربوي في جدة مهتمون بها. وأجد حرجًا في بعض الأوقات، من مجاراتهم إلى النهاية، فلم أكن مهتمًا بالموضوع منذ البداية. لذلك دائمًا ما أتهرب منهم وأسئلتهم التي لا تنتهي، والتي تحمل الكثير من الإشارات الغريبة التي تربكني وتشعرني في معظم الأوقات أنني لن أقترب من أوراق شجراتهم العائلية المباركة مهما حاولت.

سأتحدث عن هذا بالتفصيل لك يا دكتور مباشرةً، فأنت ربما تفهم ما أقصد. لن أستطيع الكتابة هنا والشرح. ذكّرني فقط يا دكتور، عندما أحضر إلى عيادتك، بأن أحكي لك القصص الطويلة

عن القبائل وفصائلها وأفخاذها وأوراق أشجارها واحترام الناس لمثل هذه الأمور. حتى قصة الخيل العربية الأصيلة وتسلسلها عبر العصور، سأحكيها لك، وكيف أن سباقات الخيل كانت تراهن على أصل الخيل العربية قبل دخوله السباق. إلى أن أصبح هذا الرهان على أصل الإنسان العربي في الحياة، قبل أن يعمل، وبنفس التتبع المستمر لشجرة التناسل المباركة حتى يومنا هذا. لدي من التفاصيل الكثيرة ما يملأ ساعة من الزمن، ولكني لن أكتبها هنا فهذا يبدو لي مملاً.

٦

اسمي عبد الأمين وهو اســم منتشر بين البخارية في مكة وربما الطائف، وأيضًــا لدى البنقالة وبعض الهنود في مكة. كيف تسرب وتوارث الاســم إلى عائلتنا؟ لا أعرف. ربــما لنا أصول بخارية أو هندية! لم أسأل أحدًا عن هذه الأشياء.

كان الاســم يختصر بأمين. وكثيرًا ما كانت والدتي تناديني أمام النساء وصديقاتها عند زياراتهن لها، معطيةً انطباعًا عن الأمانة التي أتمتع بها والتي لم أكن حتى أعرفها في ذلك الوقت.

أدركت معنى اسمي، في السابعة من عمري، عندما كنت ألعب مع الأطفال الآخريــن القادمين مع أمهاتهم في فترة المغربيات، أي بعد صلاة المغرب، وأحيانًا كثيرة بعد صلاة العشاء. في هذا الوقت تبدأ الزيارات بين النســاء في حارتنا وأعتقد في كل الحواري بجدة ومكة، وربــما المدينة وبقية المدن الأخــرى. وإن لم تكن الزيارات يومية ولكنها تتكرر كثيرًا في نهاية الأسبوع.

كانت والــدتي تهتم بهذه الزيــارات. فهي تنــام إلى بعد صلاة المغرب بقليل. وتســتعد بعدها لقدوم النســاء بأن تسأل الخادمة عن القهوة وتنظيف المجلس وبعض الأمور الأخرى. ولا تســأل عنــي مطلقًا، فهي تعتبرني موجود فقــط عندما تراني بعد الصلاة.

تنظر إليّ ثم تنـــادي الخادمة لتغير ملابسي، أو تخاصمني على إهمالي لنفسي، وتخاصم الخادمة على عدم تنظيفي وعنايتي بملابسي. وبهذا يداخلها إحساس بالاكتمال لأنها أدّت ما عليها من واجب الاهتمام بي!

هي تعـــرف تقصير الخادمة ولذلك فهـــي منتبهة لها...! عندها تشـــعر بذكائها وبمدى قدرتها الإدارية عـــلى تحمل جهل الخادمة، وإمكاناتهـــا الرائعـــة في تعليم الخادمـــة وحل مشـــاكلها باقتدار وحزم...! وتبدو لنفسها وكأنها قدمت انتصارًا إنسانيًا لا يغتفر...!

تســـتدير بعدها نحوي وتســـتخدم كل الكلمات المناسبة وغير المناسبة لكي أشعر بفداحة ما قمت به. مع أنني لم أقم بشيء له قيمة مختلفة عن الأشياء المعتادة. كنت أرســـم أو ألون أو ألعب ببعض الألعاب أو أجلس أشاهد التلفزيون. أهرب بعدها إلى الخادمة وقد اعتراني خوف وألم.

٧

نظرت من ثقــب الباب إلى الصالة منــذ الصباح. كما توقعت، لم يتحــرك شيء. والدتي كما هي وإن بــدت حزينة عليّ، وزوجتي مستسلمة لخدر الصباح اللذيذ. كنت أرغب في الخروج، ولكني لا أرغب في الحديث مع أي من المرأتين في الصالة. حلم البارحة كان عالقًا في سماء الغرفة ويدفعني للخروج منها. لذلك فتحت الباب وخرجت من غرفة النوم بعد أيام من النوم المســتمر. كنت أحاول أن أستعيد جو الكلمات وأتابع الكتابة.

وجدت والدتي تتحرك بملل في جلســتها، وشــعرت بأنفاسها ارتفعت وهي تميل بجسمها الضخم نحو اليمين، وزوجتي تجاهد لكي تنهض وتشعل الضوء. نظرتا إليّ باهتمام، ثم عاودتا الجلوس مكانهما مرة أخرى عندما جلســت في مــكاني المعتاد قبل أن احتل غرفة النوم، ولكني شــعرت ببعض الحرج. لقد ظللت أحدّق بهما ربع ساعة. كنت أتأملهما عن قرب أكثر من ثقب الباب البعيد.

والــدتي بكميات الشــحم المتراكمة على جميع أجزاء جســمها والمتركز تمام التركيز في ردفيها اللذين يملآن الكنبة الجالسة عليها، تضطر إلى نزع نفسها منها عندما تنهض. اعتادت زوجتي الحديث إلى والدتي. كثــيرًا ما أجدهما يتبادلان الكلام بكســل وبلا روح.

تتعمدان المجاملات فيـــما بينهما وتخفيان الاحتقار بداخلهما. كدت أضحك عليهما ولكني لم أفعل. ليس أدبًا بل خوفًا تسرب إلى داخلي عندما نظرت والدتي إليّ، وأيضًا رغبة في احتساب هذا عند الله، ربما أجد بعض الحسنات يوم القيامة تساعدني على دخول الجنة.

كنت قد فكرت في الجنة ونعيمها الذي تحدث عنهما إمام المسجد في خطبة الجمعة الماضية. تكلم الإمام كثيرًا، وأنا معجب به وبقوة إيمانه وقدرته على إيصال الفهم السليم لأحكام الإسلام إلى الجميع. ولكنه في خطبة الجمعة أربكنـــي، فقد تحدث عن نعيم الجنة كثيرًا، وعما فيها من الحور العين والولـــدان المخلدون والقطوف الدانية، أي الثمار المتدلية نحو أهل الجنة.

كنـــت أتخيل نفسي لحظتها متمددًا على طرف النهر والأشـــجار متدلية، أمـــدّ يدي لأقطف الثمار وأغســـلها في مـــاء النهر وآكلها مباشرة. أنظر بعدها إلى الحوريات الجميلات حولي، وأمتّع ناظري بأجســـادهن الرائعة. كانت متعة لا توازيها متعة تلك التي تحدث عنها الشـــيخ، جعلتني أعيش لحظتها بصـــورة حالمة، وأعتقد أنني انتصبت وأدركتني شـــهوة الجنس، وبذلت الكثير من الجهد إلى أن أزلتها قبل أن تقام الصلاة.

عندما عدت إلى البيت في اليوم التالي، وبعد أن استعدت كلمات إمام المسجد التي قالها في خطبة الجمعة وراجعت رغبتي في النساء، تذكرت أنني لا أحب العســـل كثيرًا، وأن أنهار الخمر التي في الجنة غير مسكرة، أي أنها ستكون عصيرًا من فاكهة الجنة. وأنا لا أحب العصير، فهـــو يربك معدتي ويجلب لي عسر الهضم مع الإمســـاك وآلامه المبرحة.

لم أنتبــه تمامًا إلى أنه لا يوجد في الجنة التي ذكرها إمام المســجد في خطبته شــيئًا يناسبني، فأنا لا أعرف الخمر ولا أحب العصير أو العســل الذي يذكرني بالمرض. والفاكهة.. لســت مهتمًا كثيرًا بها. والرغبة الجنســية بدأت تهدأ كثيرًا، خصوصًا مع تراكم ســنوات الزواج وتراكم كتل الشــحم على جسدي. وهو لم يذكر الكبسات والرز واللحم والمنــدي والمفطحات والنعم التي يرزقنا الله هي في الدنيا. وهل سيكون هناك نت؟ وأجهزة كمبيوتر؟ لم يذكر ذلك.

لقد دفعني هذا إلى التفكير في سؤال الإمام خلال هذا الأسبوع أو الأســبوع القادم عن وجود هذه الأشياء في الجنة. أنا أعتقد أنها ســتكون موجودة، فالله على كل شيء قدير. وإن لم تكن موجودة، فلا أدرى ماذا ســأفعل هناك؟ ولكني حتمًا سأكون تحت رحمة رب العالمين. والذي أبعــد عني النار ولهيبها، أنا متأكد أنه ســيجد ما يشغلني هناك. فقد ذكر الإمام في نهاية خطبة الجمعة أن في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

لم أنتبه إلى حركتهــما، فعلى ما يبدو أنني نمت عــلى الكنبة وأنا جالــس. أفقت على صوت والدتي تدعــوني إلى الأكل. يبدو أنني خرجت من النوم إلى الحلم، ولم أنتبــه إلى الخادمة وهي تعد وجبة الغداء. كنت قد أكلت بعض الأشــياء الكثيرة والمتفرقة في غرفتي، ولم أشــعر كثيرًا بالجوع، ولكني كما هي عادتي مستعد دائمًا للأكل. اتجهت بتثاقل وفرح، وتصدرت سفرة الطعام وكلمات الاستغفار تصلني من والدتي، ونظراتها تلاحقني لتســمع مني ذكر اســم الله قبل الأكل. ســميت بصوت مســموع جلبًا للبركة، ونظرت نحو والــدتي مفتخرًا بما فعلت، كي تعرف أنني تعلمت أن أســمّي الله

قبل الأكل منها، وأنني أحببت هذا كي أطرد الشيطان الخبيث عن الأكل، ولا أدعه يشـاركني النعمة، فأكون أنا الوحيد الذي يأكل الطعام، ويشرب الماء والعصير، دون أن ينقص الشيطان منه شيئًا، حتى يموت هو من الجوع، وأشبع أنا وأعيش.

ولكني تسـاءلت فجأة كيف يأكل الشـيطان من أكلي دون أن أشـعر به؟ ولماذا يأكل من أكلي أنا بالذات؟ وهل كل الناس لديهم نفس الشيطان يأكل من أكلهم؟ وهل الكفار لهم شيطان يأكل من أكلهم؟

تراجعت بسرعة، وأدركت أن الشيطان قد ركبني! وتمكن مني وأنزل رجليه حولي كأنني حمار. لذلك تعوذت بالله من الشـيطان الرجيم، وسميت وأكلت متناسـيًا كل أسئلتي، وأوليت اهتمامي بكميات اللحم الكبيرة التي أمامي والرز والخس الأخضر الرائع.

أكلت بسرعة ونهم، فقد شعرت بأن اسم الله على الأكل قد فتح شـهيتي، وجعلني أجد للأكل طعمًا رائعًا إلى أن انتهي الأكل الذي أمامي. لعقت أصابع يدي رغـم أن والدتي كانت لا تعجبها هذه الحركة، ولكنها تصمت ولا تنظر إليّ. أشـعر أن الأكل باليد يشبع أكثر، وكمية الطعام التي تدخل إلى معدتي مباشرةً من يدي لها طعم مختلف عـن الأكل بالملعقة بكميتها المحـدودة وبرودتها الحديدية المقززة.

كثيرًا ما كنت أنسى غسـل يدي قبل الأكل، ولا يذكّرني بذلك أحد. حقيقةً لم يكن أحد يغسـل يديه قبل الأكل. الجميع في البيت ينسى نفسـه أمام الأكل. كنت أحيانًا أمسح يدي فقط بمنديل أو بطرف ملابـسي، وأغرف بهما الطعام مباشرةً بعد أن أسـمي بالله

الذي يحمي من كل الجرائيم والأمراض وهو أرحم الراحمين.

غسلت يديّ بعد الأكل ليتملكني خدر كبير، وتصبح حركتي ثقيلة وأنا أنظر إلى صحن الفاكهة. لكني لم أستطع أن أمنع نفسي من أخذ موزة صغيرة، ثم بعض حبات العنب، وشربت بعدها كأس ماء، واتجهت إلى غرفة النوم وأغلقت الباب.

٨

كان عمري خمس سنوات عندما غادرت الخادمة الإندونيسية المملكة عائدة إلى بلدها. بكيت عليها بحرقة وكأنها ستموت بعد قليل.

لقد كانت هي الدنيا التي أعيش فيها. منذ أن أدركت الحياة وهي أمامي، تضحك معي وتلعب معي ونغني أشياء مضحكة. كانت تساعدني على الأكل، وتغير ملابسي وتدخلني الحمام، وتتركني ألعب بالماء وأبلل كل الألعاب التي تجلبها لي والدتي وصديقاتها. وفي أوقات، كانت تجلس داخل البانيو معي ونلعب كثيرًا إلى أن أتعب. لم تكن تملّ مني، وكنت أجلس معها طوال اليوم، وحتى عندما تعود والدتي متعبة من العمل تكتفي بالسلام عليّ بسرعة. وفي أوقات، تنظر إليّ من بعيد فقط، ثم تذهب بعدها لتنام أو لتتكلم مع أبي قبل أن يختفي. أدركت بعد فترة أنه توفى في حادث سير وهو يقود سيارته عائدًا إلى مكة قبل أن ننتقل إلى جدة بعد وفاته بأشهر.

تلك الخادمة لا أتذكر اسمها، ولكني أتذكر رائحتها النظيفة وعطورها الرخيصة والكثير من العرق المالح الذي كنت أتذوقه،

بعض الأوقات، وهي تحملني متنهدة من كلمات أمي الغاضبة.

لم أكن أفهم لماذا كانت والدتي تعنفها بكل تلك الكلمات القاسية؟ في تلك السن لم يكن يعنيني أحد غير خادمتنا الإندونيسية الطيبة. وكثيرًا ما كنت (أزعل) من والدتي عندما (تخاصمها). كان الصمت الذي أحمله في صدري هو الدرع الذي أنظر من خلاله إلى والدتي. وعندما سافرت الخادمة، شعرت بانكسار ورعب وقسوة.

لم أعد كما كنت بعدها. رغم سنواتي الخمس إلا أنني لم أعد أعير والدتي أي اهتمام كبير. لم تكن تشكل لي أي شيء، سوى أنها والدتي التي تنشر الرعب بداخلي. كثيرًا ما احتقرتها واستغفرت الله كثيرًا وبكيت. وخصوصًا عندما كنت أسمع ﴿وبالوالدين إحسانًا﴾ بصوت أحد المقرئين في الحرم أو أثناء صلاة التراويح. كنت أبكي وأنا أعرف أنني لا أحبها، ولن أستطيع أن أحبها. ولا أدرى لماذا؟ كان هناك فراغ كبير نحوها، وقسوة كبيرة تدفعني إلى الجنون. كانت هي تشعر بهذا وتحس بعدم وجودها في داخلي فتقسو علي أكثر.

بعد سفر الخادمة تلك، لم أعد أهتم بأي أمر. كنت أتحين الفرصة لكي أكسر مرآة الحمام وبعض المزهريات الجميلة. شعور مفرح بالارتطام كنت أستمتع به وهو يملأ البيت بالرنين المتكسر.

ترتفع بعدها الصرخات والكلمات والقسوة الكبيرة (باللطمات) والخبطات والضربات التي تنهال علي من والدتي، إذا كانت موجودة. أما إذا لم تكن، يتحول غضبها إلى الخادمة التعيسة. ويتعالى الحلفان والقسم بالله أنني أنا من كسر المزهرية أو المرآة وليس الخادمة. لكن لؤم والدتي التي تعرف تمامًا أنني أنا من كسرها يدفعها إلى خصم قيمة المزهرية من راتب الخادمة.

هذا دفعني إلى أن أستمتع بالكسر بوجود والدتي، حتى أزيد من تعذيبها وأزيد من العقاب الذي أتلقاه منها. إلى أن هربت في إحدى المرات واندفعت في الركض، لأسقط مرتطمًا برخام الأرض ويغمى علي. بعدها أصبحت قليل الحركة وقليل التفكير، وأحمل الكثير من الخوف من والدتي المرعبة.

لم أتمكن بعدها من معرفة كيف أحترم والدتي بدون أن أخاف منها. لا يمكن العيش بدون الخوف من نار الآخرة ونار الدنيا التي تطل من نظرات والدتي. صليت كثيرًا، وعندما كبرت تصدقت، ولكني في النهاية أصبحت سجين هذا الخوف.

في كثير من الأوقات، كنت أتساءل أين ذهبت تلك الخادمة الإندونيسية الطيبة، وهل لديها أولاد. كنت أستغرب قبل أن أتزوج كيف كانت والدتي تتركني مع الخادمة الإندونيسية الطيبة، ثم تعود وتجدني ممتلئًا صحة وجمالاً. وبعدها تخاصم الخادمة بأعلى ما تملك من صوت. وفي آخر اليوم تقول لي أنا والدتك والجنة تحت قدميّ. كان يبدو لي هذا حلمًا، ففي أوقات أشعر أنني أعيش بعض الأحلام، بأن أدخل إليها مباشرة وأفاجأ بنفسي في المنتصف.

كنت أصدق، في ذلك الوقت، الأحلام ولكني اليوم أشك أنه حلم، أو أن تحت قدميّ والدتي جنة. أشك أن تحت قدميها أي شيء. وعندما أنظر الآن من ثقب الباب إلى قدميها الكبيرتين أعتقد أنهما لا تعنيان أي شيء، وأني يجب أن أخرج من هذا الحلم اللعين.

استغفرت الله كثيرًا على هذا. ولكني أحتار الآن في أن تكون تحت قدميها جنة، والخادمة الإندونيسية التي أطعمتني وألبستني واعتنت بي أيامًا وسهرت لياليًا معي، تلاعبني وتغني لي وترسم لي

الكثير من الصور بصبر وكثير من الحب، هذه الخادمة ليس لها شيء سوى راتبها.

أستغفر وأحمد الله على كل نعمه التي وهبنا إياها، وأكرمنا بالإسلام ومنّ علينا بالرسالة المحمدية. وأصلي على النبي كثيرًا وأطلب من الله المغفرة بجلال كل أسمائه الحسنى. ولكن قلبي لم يشعر بوالدتي في يوم من الأيام، وبقي باردًا كما هو.

أعيد النظر من ثقب الباب إلى والدتي لأجدها بلا ملامح، وكأنني أنظر إلى صورة قديمة ذات إطار مكسور. ينتابني حزن على نفسي ورغبة في الهروب مني. أتجه إلى الكمبيوتر وبي رغبة في الحديث عن الرحمة والحنان، تكتسيني المسحة الدينية لاستخدم الاسم المستعار المناسب وأتجه إلى النت.

تنهمر علي كل كلمات الإيمان وحب الخير وبر الوالدين والرحمة بهما كما ربياني صغيرًا. مع أن والدتي لم تربني ولم تتعب في شيء سوى الحمل والولادة، وأي امرأة خلقت كي تحمل وتلد كما أراد لها الله عز وجل. لكن التربية التي ذكرها القرآن تذكرني دائمًا بالخادمة الإندونيسية التي ربتني صغيرًا.

أتناسى كل هذا، وتكتسيني ملامح إمام المسجد وأقواله، فأطلق العبارات الدينية الرنانة في النت وأنا راضي الضمير منتفخ الأوداج، وكأنني عاصرت الفتوحات الإسلامية في الأندلس. وفي أحيانٍ، أشعر أنني كنت مع خالد بن الوليد سيف الله المسلول في وجه الكفار في كل أصقاع الأرض!

ما كان يدهشني بعد ذلك هو الردود المباركة التي كنت أتلقاها. أطرب لها كثيرًا إذا قرأتها مباشرة بعد أن أنهي خطبي العصماء. فأجد

نفسي متفاخرًا بإنجازي وقدرتي الفذة في معرفة الدين. ولكني كنت أضحك عليها عندما أقرأها في اليوم التالي. وفي كثير من الأحيان، أتجاهلها تمامًا ولا أحب أن أعود إليها مرة أخرى.

شعور بالهروب يدفعني إلى التحول من فيس بوك إلى تويتر، ثم إلى بعض المنتديات. لأعود إلى فيس بوك وأستخدم اسمًا مستعارًا أهاجم به نفسي وأستخف بالترهات التي ذكرتها، وكيف أنني عبء على الناس لعدم شعورهم بما أكتب من تفاهات. تكتسيني حيرة كبيرة بعدها، وأعود لأقبّل يد والدتي وأصلي على النبي، وأكثر من الاستغفار وطلب الرحمة من رب العالمين مقلب القلوب والأبصار.

٩

عنـــد دخول الأطفال إلى بيتنا تتركنا الأمهات مع بعضنا، نلعب ونفجر كل ما نعرف من قوة. نركض حتى نتعب، وتتعالى أصواتنا إلى أن تختفـــي. نتبادل الكثير من الكلـــمات واللكمات والكدمات والضحكات والقصـــص. نتعلم من بعض أن الاكتشـــاف ممكن أن يكون ملفتًا. ولكن تنافســـنا في إدهاش بعضنا هو الرائع. كنت أبدو لنفسي كبيرًا وأنا أكتشـــف أفـــكار الإدهاش تلك. حتى إنني كنت مستعدًا أن أقفز من الدور الثاني إلى الأرض، لأثبت للأولاد الآخرين كم أنا قوي وخارق للطبيعة. كان اندفاعي لحظتها سريع، وصراخـــات الأطفـــال تصيبني بالجنون وتزيد مـــن سرعتي نحو الهاوية. لم أقفز، فقد كانت الخادمة ممســـكة بي وهي تبكي علي من الخوف.

كنت دائمًا أتعلم من الأطفال الآخرين كل الأمور، وأكتشـــف معهم أشـــياء جديدة. فمعنى اسمي ومدلول الأمانة كان أحد هذه الأشياء التي تعلمتها، وأدركت أن الأمانة شيء من الممكن أن ألعب به في سبيل الحصول على ما أريد. أو هكذا فهمت تلك الأيام.

لم تكن والـــدتي تهتم بنا ســـوى عندما نتعـــارك نحن الأطفال

مع بعـــض ونبدأ بالمطاحنة. عندها تأتي وتنظـــر إليّ متوعدة. أدرك بعدها أن العقاب ســـيكون قاســـيًا تلك الليلة، والذي يكون عادةً قبـــل أن أنام. أتلقـــى كل أنواع الكفوف الأماميـــة والخلفية وعلى الرقبة، والقرصات وأحيانًا الضرب بمسطرة أو بتلك العصا المرنة (الباكورة) والتي تخفيها لهذا النوع من المواقف.

كنت في البداية أعاند، ولكني استســـلمت بسرعة بعد ذلك ولم أعد أتعارك. تركت الأطفال يتعاركون فيما بينهم، مكسرين بعض التحـــف الصغيرة والكـــؤوس الزجاجية، وأحيانًـــا بعض ألعابي القديمة.

أخاف عقاب والدتي القاسي والذي يتجســـد في والدتي نفسها التي كانت تهتم بتربيتي كما تقول. كان اهتمامها عندما أخطئ فقط. وعندما أمرض تتركنـــي للخادمة، وتهتم باجتماعاتها مع النســـاء الأخريـــات أو متابعة مسلســـلات التلفزيـــون، أو حتى الخروج للســـوق بغرض الاســـتعداد ليوم دراسي جديد بملابس جديدة. وهي في الحقيقة تشـــتري ملابس بمقاسات أكبر من القديمة حتى تخفي كميات الشحوم الهائلة التي تكونت على ردفيها وكل أجزاء جسمها.

١٠

قبل أن أنام، لم أكن أستطيع أن أتكلم كثيرًا مع والدتي، فقد كانت تتجنب الحديث معي ولا أعرف لهذا سببًا. كنت أتعجب من ذلك، ومع الأيام اكتفيت بأن أنتظرها لتتحدث معي. عادةً لم تكن تتحدث بقدر ما كانت تأمرني أن أفعل هذا أو أترك ذاك، وأستطيع أن أقول إنني لم أكن أتوقع منها أكثر من هذا، مع أنني أشعر بأنها يجب أن تعمل شيئًا آخر لا أفهمه ولكنني أحتاجه ولا أعرف ما هو. ومع الوقت أصبحت لا أشعر برغبة كبيرة في العثور عليه. ربما الجلوس في الركن والبكاء بصمت يريحني وأنا أطالع والدتي مهتمةً بتصحيح دفاتر طالباتها أو تسبح لله تعالى. وأسمعها في أوقات تطلب منه الهداية، أو تكون ساجدة في صلاتها مطيلة السجود، وداعية الله أن يهديني ويوفقني كي أبرّ بها وأدخل الجنة من تحت قدميها.

اليوم، وبعد مراقبتي لها من ثقب الباب لأسبوع كامل، أستطيع أن أقول إن والدتي كانت ملتزمة وبصورة ممتازة. فلم تكن هناك صلاة واحدة مفروضة تفوتها مطلقًا، حتى ولو كانت مريضة.

١١

لقد عرفت والدتي بشـــكل مختلف عندما كنت بعمر السادسة. لحظتها كانت الحركات الصبيانية ممتعـــة. لذلك التقافز والصراخ كانا دائمًا يدفعان للانتشـــاء، وملامســـة الهواء في الارتفاع القريب يجعلني أكتشـــف جزءًا من متع الحياة الرائعة. حس مشرق يتمدد داخلي يدفعني إلى الفرح والارتقاء في ســـماء الغرفة الملاصقة لغرفة والدتي بمكتبها الفخم الصامت.

بعد بعض الوقت، أتاني صوتها من بعيد آمرًا بأن أصمت ولكني تجاهلتـــه، فبهجة تحـــول المكان حولي إلى مدينـــة ألعاب صاخبة لا تقاوم. استمريت في اللعب والقفز إلى أن أتتني الصفعة التي أدارت وجهي إلى الخلف، ثم عاد بسرعة كما كان.

لم أشعر بوالدتي عندما فتحت الباب ودخلت واقتربت ورفعت يدهـــا ثم هوت بها على خدي. بدت لي والدتي لحظتها وكأنها قادمة من الســـماء. كم تمنيت أن أفيق من الحلم وأعود إلى النوم، ولكني اســـتمريت في الألم، واليوم أتذكر جيدًا صفعتها القوية على خدي الأيمن، بيدها العسراء، والتي بسببها فقدت السمع تمامًا في الأذن اليمنى، ولم أعد أســـمع في حياتي كما كنـــت قبل الصفعة. جزء من

السمع لم يعد إلى رأسي، وأصبحت مشوش السمع وكأني (أصنج)، وهذا أثّر في قدراتي على الفهم والتي كانت محدودة أصلاً.

يوم الصفعة ذاك أدركت فيه أن والدتي تختلف عن بقية الناس، فهي ممكن أن تفعل أي شيء لأنها والدتي ولأن الجنة تحت قدميها! لقد كنت يومها قليل الحيلة أفكر ببطء، وأحيانًا أشعر بأنني لو لم أفقد السمع لكنت أفضل حالاً.

كانت والدتي كثيرًا ما تردد أن في مقدورها أن تسخطني بكلمة منها. خفت بعدها من نظراتها، واعتراني إدراك بأن والدتي قد تكون ساحرة، وبكلمة من الممكن أن أتحول إلى حشرة وتدعسني بقدمها وأموت ولا يعرفني أحد.

أخذ عقلي الصغير ينسج حكايات مرعبة عني وعن موتي الذي أرتعب منه عندما أنظر إليها. توالت بعدها الأحلام وتقاربت مع النوم الذي أدخل منه إليها ولا أستطيع الخروج منه بسهولة. وفي أوقات كنت أشعر بالسجن داخل تلك الأحلام المرعبة، مهما كنت يقظًا. وأجد الأحلام تتقافز أمامي وأنا جالس في الفصل الدراسي في المدرسة.

بدا الخوف واضحًا على والدتي بعد صفعتها تلك، خصوصًا عندما أخذتني إلى الطبيب الذي لا أتذكر سوى كبر عينيه، وهو ينظر إلي وأنا أضع قطعة القماش على أذني حتى أمنع الدم من إفساد ملابس الخروج الجديدة التي ألبستني إياها أمي بسرعة، حتى إنها أدخلت قدمي في الحذاء بقوة.

كان اندفاعها نحوي كبيرًا عندما أطلقت صرختي بأعلى ما أملك من صوت بعد الصفعة. كان ألم الانفجار الذي حدث داخل

رأسي وأخرجتــه بتلك الصرخة القوية قد أرعبها وأرجعها إليّ مرة أخرى. كانت والدتي قد اســتدارت واتجهــت إلى غرفتها بعد أن صفعتني، لذلك بعد صرختي المدوية عادت أكثر حنقًا. كنت أضع يدي على أذني وأنظر إليها مباشرةً. تدفق الدم من أذني ورأته مختلطًا بصوت الألم الصاخب.

أنزلــت يدي وأنا خائف منها ومن الألم الذي في أذني. اســتمر الدم بالتدفق لينســاب على رقبتي وملابسي. كانت لحظات سريعة التي ألبســتني خلالها، وأوقفتني بجوار الباب ريثما ترتدي العباءة السوداء الكبيرة. كنت أتألم من أذني وفي نفس الوقت فرح بالملابس الجديدة والحذاء الأسود اللامع.

عند عودتنا إلى البيت، عرفت أن النساء من الممكن أن يبكين على أطفالهن. وهذا لم يكن مهمًا، ولكنني فرحت لأن والدتي استجابت لطلبي بأن أبقى بالملابس الجديدة تلك الليلة، حتى إنني لم أخلعها سوى في صباح اليوم التالي.

أخفت والدتي فقداني الســمع عن الجميــع، وأصبح الأطفال من حولي يسخرون مني، حتى إنني نسيت كبر حجم أنفي وصغر عيني وكبر فمي والتي كانت دائــمًا تخجلني، إلى أن أصبحت دائمًا أتحاشــى أن يتهامسوا من حولي وأنا لا أســمعهم وأتلفت أمامهم كالأبله الذي لا يفهم شيئًا.

أهز رأسي ربما ينتهي الحلم وأعود لأســتمر في النوم، ولكن بلا فائدة. يستمر الأطفال في تهامسهم حولي، وأبتعد عائدًا إلى البيت، وأتجــه مباشرةً إلى النوم ربما أســتطيع أن أنهي هــذا الحلم اللعين. ولكني في اليوم التالي وجــدت نفسي وقد أصبحت أخاف والدتي

كثيرًا لدرجة أنني أتحاشى أن أراها.

كنت أخاف أن أفقد السمع تمامًا بصفعة على الأذن الأخرى. أتردد كثيرًا عندما تطلب مني والدتي أن أقترب منها، لأكتشف أنها تود أن تلاعبني أمام صديقاتها. أشعر عندها بحرج شديد، فهي بتصنعها اللعب تبدو مضحكة إلى درجة القرف، ولكنني لم أصرح لها مطلقًا بهذا، فقد كنت أخاف أن تصفعني، فألتزم الصمت وأتسلى بنظرات صديقاتها البلهاء إلى أن أذهب للنوم وأخرج من ذلك الحلم السمج.

١٢

بالمناسبة، لم أحقد على والدتي أو أكرهها قط لسبب أرى أنه بسيط جدًا. لقد كنت لا أشعر بها. أشاهدها فقط وهي تصلي، وحتى هذه فقدتها، فقد كانت ترسلني إلى الصلاة في المسجد منذ أن بلغت العاشرة. وأصبحت لا أتأملها مطلقًا منذ ذلك الوقت. كان جسدي يكبر كل يوم، ولكن سمعي بقي ضعيفًا. قلّ لعبي مع زملاء الدراسة، فقد كنت مملاً وأنا أطالبهم دائمًا بالصراخ في أذني. وحتى عندما أسمع أجد أن الفهم يحتاج إلى تركيز أكبر، لذلك اكتفيت بالمشاهدة. أجلس عند الباب وأراقب الأولاد يلعبون، وأصبح هذا الوضع لدي أمتع ما يكون. لم أتقرب من أحد، ولم أصادق معظم زملاء المدرسة، حتى الأولاد في الشارع أو الملاهي لم يهتموا بي مطلقًا. كنت ثقيلاً في كل شيء!

أعرف أن حكاياتي متفرقة، مثل الأحلام التي تأتيني بدون إعداد مسبق، ولكني أكتبها حسبما أتذكرها فقط. فرغم كل الهواء الفاسد داخل غرفة النوم، فإنني أجد نفسي مستمرًا في الكتابة، حتى إنني في أوقات أتجاهل رغبتي القهرية في مراقبة الصالة من ثقب الباب اللعين ذاك، محاولاً أن أجد ما يمكن أن يكون قد تغير. ولكن كل

التحركات رصدتها وكتبتها، ولا أستطيع كتابتها مرة أخرى فهي مكررة وتبعث في نفسي الملل.

١٣

كانت تــراودني كثــيرًا في الأحلام بعض التســاؤلات التي لا أجد لها إجابة. فأنا لم أســأل والدتي يومًا لماذا كانت تخفي مشاهدة التلفزيون عــن صديقاتها؟ ولماذا تخاف من معرفــة الآخرين أنها تشاهد التلفزيون. تتدافع هذه التساؤلات بداخلي، إلى أن أدركت أن مشــاهدة التلفزيون من المحرمات في الإسلام حسب الفتاوى التــي تنتشر في المســاجد وفي الكثير من خطب إمام المســجد أيام الجمعة، وأحيانًا بعد نهاية بعض الصلوات. ولكن يبدو أن والدتي لم تســتطع أن تقاوم رغبتها في مشاهدة التلفزيون، واكتفت بإخفاء هذه المشــاهدة عن صديقاتها. ثم تناســت الموضــوع، ومع تقادم الوقت لم تعــد تهتم إن عرفن أم لا. فقد أصبحن كلهن يشــاهدن التلفزيون، ولكنهن يشــاهدن قنوات إســلامية مختارة ويقاطعن قنوات إســلامية أخرى. كل هذا لم يكن مهمًا لي، فقد كنت أشاهد أفلام الكرتون باســتمرار ودون أن أجــد أي اعتراض من والدتي المنشــغلة دائمًا. خصوصًا في تلك الأيام حين كانت مشــكلة أذني شغلها الشاغل، والتي لم تهدأ حتى بلغت العاشرة من عمري.

جميع مدرسات المدرسة تناوبن على أذني. كل واحدة تضع فيها قطــرات من زيوت مختلفــة، لها روائح (مقرفــة)، وبعضها بدون

رائحـــة، وجميعها لها وقـــع الألم. بعضهن يبالغـــن في الاجتهاد إلى درجة الغليان التام للزيت وســـكبه داخل الأذن ليتم التئام الجرح الصغـــير، إلى أن تأكدن بأنني فقدت الســـمع من تلك الأذن تمامًا. لم يكـــن أمامي أي طريق آخر للهرب منهـــن. حتى عندما أنام كن يعشـــن معي في الأحلام، وأجدهن مبتســـمات بحنان ثم يمسكن برأسي ويسكبن الزيوت بمختلف أنواعها إلى أن أصرخ وأعود إلى النوم مرة أخرى هربًا من تلك الأحلام المزعجة.

١٤

في بعض الأيام، كانت والدتي تأتي من المدرسة وتنام مباشرة، ثم تنهض بعدها لتصلي العصر. تسبح بعد الصلاة كثيرًا وتستغفر وتنظر إليّ قليلاً وكأنها تذكرتني. تتجه بعدها مباشرة إلى دفاتر طالباتها. أكون عندها قد اعتراني الخوف من تأخري في الصلاة. كنت في تلك الأيام أنام بعمق ولا أستيقظ بسهولة.

في بعض الأيام، تتركني والدتي إلى قبيل المغرب، ومعظم الأوقات كانت تلكزني بقوة على كتفي الأيمن. كانت كل تعاملاتها اليدوية معي من الناحية اليمنى. وأعتقد دائمًا أنها تفعل ذلك لأنها كانت عسراء. لكنني الآن متأكد بأنها تطلب الأجر من الله (بالتيامن).

لقد تألم جانبي الأيمن كثيرًا، وفي أحيان كنت أقرّب لها جانبي الأيسر، ولكنها كانت تصر على الجانب الأيمن. كانت أماً رائعة بالتزامها الإسلامي مهما كانت النتائج.

في أغلب الأوقات، كانت تنتهي من تصحيح الدفاتر قبل صلاة المغرب. أكون حينئذ قد انتهت من تناول البطاطس المقلية بالكتشب وشربت البيبسي وتجشأت أربع أو خمس مرات.

كنت عندما أراها تنهض أذهب مباشرةً إلى الحمام، فهي قطعًا

ســتضربني لأنني لم أتوضأ للصلاة. كنت أهرب كثيرًا من والدتي عند تأخري في الصلاة، وجســدي يختل توازنه أثناء الهروب. وفي معظم الأوقات، أثناء هربي منها، كنت أرتطم بالمغســلة أو بجدار الحمام ولا أشــعر بألم، بل أقفل الباب بسرعة قبل أن تراني. بعدها انســحب على جدار الحــمام والألم يعتصرني بــلا رحمة. أجلس في الحمام بعض الوقت، ثم أغســل وجهي وذراعيّ سريعًا وأمســح رأسي وأخرج. وفي أوقات أنســى غسل قدميّ، فأنا أتألم من رفعها إلى حوض المغســلة العالي والذي أكاد أســقط وأنزلق على أرضية الحمام كلــما حاولت رفع قدمي عليه. لذلك كنت أســتعيض عن ذلك بفتح حنفية الماء القريبة من الأرض على قدمي وأخرج. وأمي كانت لا تلاحظ قدميّ بقدر ما تلاحظ رأسي وذراعيّ، تتفحصهما بإصبعها أحيانًا، ونظراتها النارية تلاحقني وقلبي يرتجف خوفًا من أن تصفعني في أية لحظة.

من المهم أن أصلي فقط. أكبر وأركع وأسجد وأرفع يديّ وأسلم عند انتهــاء الصلاة. يجب أن يكــون كل شيء كما يجب، ولكنها لم تسألني قط عما أقول في الصلاة، أو هل قلته أم لا. تنظر إلى صلاتي مــن الخارج وتذهب. أتــردد في بعض الأحيــان في إتمام الصلاة، ولكنــي في النهاية أصبحت أصلي كما يجب ولا أســتغل أي فرصة للخروج عن آداب الصلاة المفروضة وغير المفروضة. كنت أراقب الله في الصلاة. وإن سرح فكري أثنــاء الصلاة أعيدها مرة أخرى خوفًا من نار الله التي لا ترحم المذنبين.

١٥

نظرت من ثقب الباب وشاهدت الخادمة الجديدة. كانت تشبه إلى حد بعيد الخادمة القديمة التي نامت بجواري، حين كدت أفقد البصر من الحرارة التي ارتفعت بسرعة. كانت الخادمة القديمة مرهقة من تعب العمل طوال النهار، وكنت أرتعد من البرد وجسدي يذوب من الحرارة التي لا أعرف مصدرها. بقيت طوال الليل أئن في غرفتي، والخادمة بجواري نائمة مثل الميتة، ووالدتي خرجت إلى السوق وعادت إلى غرفتها مباشرة ونامت كعادتها. لم تلقِ نظرة علي. نسيت مرضي ونامت. حاولت أن أتحرك ولكن التعب تمكن مني، ولم أستطع سوى التدحرج من السرير والسقوط على الخادمة النائمة بجوار السرير على الأرض. نهضت من نومها مفجوعة والخوف يرتسم على وجهها. نظرت حولها وأعادتني إلى السرير. بقيت إلى جواري بقية الليل إلى الصباح وهي تعتني بي وتستخدم الكمادات الباردة لتخفيف الحرارة عن جسدي.

لم تطلب من والدتي شيئًا، فقد كانت تخاف إيقاظها لمثل هذه الأمور. وكنت أنا من ضمن هذه الأمور التي تعتبر صغيرة، ومن الممكن أن تعتني بها الخادمة.

أخذتني الخادمة في اليوم التالي إلى المستشفى. كان استغراب

الطبيب وابتسامته الصفراء الحزينة عليّ باديـة، ولكني تجاهلتها عندما سألني:

- أين والدتك؟
- في المدرسة.
- هل هي مدرّسة؟
- نعم.
- لماذا لم تأتِ معك؟
- لا أدري.
- هل تعرف أنك مريض؟
- نعم.

كانت أسئلته لا تنتهي، وكنت متعبًا جدًا. فأعوامي الثمانية بدت لي لحظتهـا قليلة ولا أعرف الكثير عن النسـاء. عدنا بعد ذلك إلى البيت وأخذت العلاج ونمت طوال النهار. لم أشعر بوالدتي عندما أتت من المدرسة، ولكنها أتت بعد المغرب لتسألني:

- هل ذهبت إلى المدرسة؟
- لا.
- لماذا؟
- لقد ذهبت إلى المستشفى مع الخادمة.
- وماذا قال الدكتور؟
- لم يقل شيئًا، كتب لي علاجًا وعدت.

لم أقل لها إنه سأل عنها. لا أعرف لماذا؟ ولكنني لم أشعر بأن هذا أمرًا مهمًا في تلك اللحظة.

كانت الخادمة تقدم لي الدواء في المواعيـد التي كتبها الدكتور،

بعد أن أكّد عليها بـــضرورة أخذ العلاج في الوقت المحدد حتى لا تحدث لي مضاعفات وأفقد البصر.

هذا مـــا فهمته تلك الأيـــام ولم أذكره لوالدتي، وهي لم تســـأل عن شيء. عادت مرة أخرى إلى متابعة مسلســـلاتها في التلفزيون، والحديث مع صديقاتها واجتماعاتها الأسبوعية، ونسيت أنا مرضي وتابع الخوف تمدده بداخلي.

كنت بعدها لا أجد فرقًا كبيرًا بين النســـاء القادمات إلى البيت. فهن مدرسات وأطفالهن مثلي. وأتوقع أن تعليمهن يقدم إلى البنات في المدرســـة على أنهن أمهات المســـتقبل مثلهن. لم أكن أفهم كيف يمكن أن يعلمـــن الأطفال في المدراس، وهن لا يعرفن أطفالهن في البيت!

أصبح الخـــوف من والدتي لا يوصف بعـــد أن طردت الخادمة الأخيرة من البيت لأنها كسرت طبقًا من الطقم الصيني المخصص للضيوف. لم يكن خطؤها، لقد كانت تنظر إليّ وهي تضع الطبق في المكان الخطأ. كانت تسمع كلماتي المتلعثمة غير المفهومة عندما سقط الصحن وانكسر. هربت بسرعة وارتفع صراخ والدتي على الخادمة ثم طردتها. لا أعرف مـــا مصيرها ولكني أغلقت على نفسي الباب وبكيت على الخادمة وشعور بالقهر والرعب يتشكل بداخلي.

تنهدت، لقـــد أعادتني الخادمة الجديدة إلى ألم كنت قد نســـيته. أدرت ظهري وأســـندته إلى باب غرفة النوم من الداخل، وأنا أنظر إلى خزانة الملابس أمامي، وصمت الأحلام القاتل يســـد علي كل الكلمات.

١٦

دخلت مسرعًا وتأكدت مـــن إغلاق الباب، ثم نظرت من ثقبه لأتأكد أن الجميع قـــد ذهبوا للنوم في هذا الوقت. أشـــعر ببعض القلق وأنا أكتب عن والدتي أمـــام أحد غريب عني. وأجد أن كل الآخرين غريبون عني، بما فيهم زوجتي والخادمة.

فاســـم والدتي لا يهم أحد أن يعرفه. أنا لم أذكره أمام رجل قط، وإن كنت أكتبه مضطـــرًا أحيانًا. لا أذكـــر بالتحديد من أين أتاني شعور بأن اسمها من العورات الشرعية التي يجب أن تستر كوجهها الصامت دائمًا. ربما من إمام المسجد، أو من المدرسة، أو أنه أتاني في أحد الأحلام.. لم أعد أذكر.

تعاركت أكثر من مرة مع زملاء المدرســـة على اسم والدتي، فأنا أعتقد أن من باب احترام الحريات عدم إحراجي بطلب ذكر اســـم والدتي. فقد تخلت الجوازات عن فضـــح أعراض الناس الشرعية منذ زمن.

لم أكن أتخيل أن تستغل الحكومة من قبل بعضهم لتفضح أسماء أمهات المملكة كلها. لقد رفضت بعثة تدريس إلى باكســـتان، على الرغم من أنني أعمل في التوجيه، وذلك بســـبب وجود اسم أمي في الجـــواز. كنت متأكدًا أنهم ســـيعرفونه. ســـوف يعرفه موظفو

الجوازات والجمارك والطيران والمطار والسفارات والمترجمون كلهم وعائلاتهم، وربما عمال النظافة في المطارات. لا أستطيع تحمل هذه الفضائح أمام خلق الله. قد أموت من الإحراج والهم.

في أوقاتٍ، يشـــعرني الإحراج بالغضب، وأنا لا أحب استعداء الآخرين. لذلك قررت أن الســـفر غير مهم. ومع الأسف، بعد أن انتبهت الحكومة للمهزلة التي كانت في الجواز وأمرت بشطب اسم الأم منه، لم أجد الفرصة للسفر. فقد راحت السفرية إلى باكستان، وإن كنت آمل أن تأتي سفرية إلى بلد آخر، أكثر سترًا من قبل!

١٧

والدتي مدرسة من قدماء المدرسات في بداية السبعينيات من القرن الماضي. كانت المدرسات هن الطالبات، وكانت والدتي واحدة منهن، مما أعطاها مكانة بين رفيقاتها أكثر أهمية. مع العلم أنها أكملت المرحلة المتوسطة وربما الثانوية، وقد تكون أنهت الدراسة الجامعية، لم أسألها قط عن شهاداتها الدراسية، فقد أشعرتني أن هذا من أسرارها المدفونة، ومن الحرام سب الميت. وفي السنوات الأخيرة، عرفت أن سبب طلاقها من أبي هو مستواها التعليمي الذي وصلت إليه، وترفعها عليه بما تحصل عليه من راتب. أدركت فيما بعد أن مستواها التعليمي لم يكن السبب الحقيقي، بل شعورها بالمكانة المرموقة التي وصلت إليها هي التي جعلتها ترفع من نفسها كثيرًا. وتمتلئ غرورًا إلى مرحلة جعلتها لا ترى في التعليم سوى قدراتها الشخصية فقط.

وهي اليوم تبدو من ثقب الباب وهي تطالع التلفزيون باهتمام كأنها ليست نادمة على كل حماقاتها السابقة. بل بدت راضية، كأنها تشعر بأنها ستدخل الجنة بعد أن تموت مباشرة.

١٨

يجب أن أكتب هذا قبل أن أستيقظ من النوم ويذهب الحلم وأعود إلى ثقب الباب اللعين. لقد كانت والدتي في بعض الأحيان تتفاخر بأمومتها أمام بنات صديقاتها بصورة كبيرة تجعلني أتعجب من كلماتها ومن أين أتت بها! وقد سجلت لها كثيرًا من خطبها العصماء التي كانت تجيد إلقائها وتركيب كلماتها بصورة مذهلة:

"إن شاء الله ستصبحن أمهات وتعرفن تعب الأم وفضلها.. لو فكرتن بذلك حتى وصلتن لهذا العمر الذي تستطعن فيه استخدام النت وكتابة استشارة، للزمتن أقدامهن خدمة وتقبيلاً. تركتن الطريق الذي يوصلكن إلى الجنة وتبحثن عنه عند معلمات لن يصلن لجزء من مشاعر الأم وتعبها.. ويمكن لو كانت أمك لتغير كلامك. فهل عاملتِ معلمتك مثلما تعاملين أمك؟ أو العكس حتى تحكمي؟ لماذا تنتظرين منها الود؟ جربي تودديٍ أنت، واحضنيها وتحمليها. فعندها هموم لم تريها وتعلمي بها. بدلاً من أن تزيدي عليها خففي عنها. وسوف تتفطن لذلك وتنتبه. وحتى لو ظلمتك سامحيها واحتسبي الأجر عند الله. ستجدين جزاء ذلك في الدنيا والآخرة بإذن الله".

بعد ذلك سمعت صديقتها الأضخم منها جسدًا تقول إن

القسـوة على الأبناء ليسـت حقيقية من داخل القلـب، وإنما من خارجه؛ من أجل إيصال فكرة معينة، مشيرة إلى أن الزمن الحاضر يستدعي التعامل مع الأبناء بقسوة، نظراً لأنهم أكثر قوة وعناداً من الجيل السابق، الأمر الذي يسـتدعي استخدام وسائل العقاب في التربية؛ من أجل أن يكونوا في الطريق الصحيح.

وأنا أيضًا لم أفهم معنـى الطريق الصحيح. لم أخرج من البيت ولم أتحـرك من أي مكان، فأي طريق تتحـدث عنه. أغلقت جهاز التسجيل بعدها ونسيت الموضوع تمامًا.

عندما نهضت مـن النوم، كانت غرفة النـوم مظلمة تمامًا، ولم أسـتطع أن أدرك هل نهضـت من النوم أم أن الظلام مسـتمر في الحلـم، لذلك كان الضوء القادم من ثقـب الباب هو الدافع لكي أقف وأفتح الضوء في غرفة النوم.

١٩

اليوم، ومن ثقب الباب، نظرت إلى والدتي الجالسة في مكانها نائمة. كنت أتقاسم معها ظلام الصالة الباهت. بدت بعيدة عني جدًا. رغم أنها دائمًا كانت بالقرب مني، ولكنها لا تسمع، ترى فقط ما حولها ولا تشعر بأحد. وصلني هذا من نظراتها الساهمة وجلستها المسترخية. فبدت لي وكأنها تحكي ولكنني لا أسمع صوتها.

كانت كثيرًا ما تحكي عن جدتها ومنزلها في مكة، وكثيرًا ما كنت أحزن، ولكني سرعان ما أنسى كل شيء بمجرد ابتعادي عنها. رغم أن صوتها يتردد بجوار أذني لحظة خروجي ولكنه لا يترك أثرًا. مجرد أصوات لا معنى لها تختفي بين نسمات الهواء.

لقد كانت والدتي نصف من أعرف من النساء، وإن كان إحسان، مدرس اللغة العربية في المدرسة التي بجوارنا، دائمًا ما يفرق بين الأم وبين بقية النساء. فبدت لي والدتي وكأنها تختلف عن بقية النساء. لم أشعر أنا بهذا كثيرًا ولكني أجد أنها مثلهن عدا العمر. كانت والدتي أكبر في السن وكانت تصلي كثيرًا، بعد كل صلاة، وقبل كل صلاة. تستغفر بهمس وكأنها ارتكبت إثمًا كبيرًا لا يغتفر، لكن أملها في الله كبير!

يداهـــا البيضـــاوان الممتلئتان دائمتـــا الحركة، وفمهـــا يتمتم باســـتمرار. وعندما تكون في الصالة، تجلـــس على الكنبة الصغيرة مستقبلة القبلة، منجذبة إلى الدعاء تمامًا.

٢٠

لم يكن أبي موجودًا في البيت. وكثيرًا ما سألت عنه أمي فتكون إجابتها دائمًا بأنه مسافر. سنوات وأنا أعتقد أنه مسافر حتى إنني ظننت أنه ربما استقر في تلك المدن البعيدة. أعرف أن والدي موجود في مكان ما في المملكة، وأنه سيأتي في يوم من الأيام لأراه. ولكنني لم أكن أعرف معنى الطلاق إلى أن سمعت بالصدفة حديث والدتي مع إحدى صديقاتها وهما خارجتان من البيت حيث أجلس. سمعت كلمة الطلاق ولم أفهم معناها، لكنني عرفتها فيما بعد وأدركت أن والدتي مطلقة. وعرفت بعد سنوات أن والدي توفي في حادث سيارة ولم يعد يصل لوالدتي مصروف مالي لاحتياجاتي. لم أحزن عليه لحظتها، ولكن الفقد سكن رأسي بقية العمر.

بعدها لم أسأل والدتي عنه أبدًا. أقنعت نفسي بأن والدتي تكفي حياتي وحياة اثنين آخرين معي، ولا أعتقد أنني من الممكن أن أتحمل المزيد من الخوف دون أن أفقد القدرة على التفكير، وهي قدرة غير كبيرة على كل حال. ولا أعتقد أنني من الممكن أن أزيد من قدرتي على التفكير كما أستطيع أن أزيد من وزني. كنت بدينًا جدًا عند بلوغي العاشرة، وكان هذا مفخرةً لأمي، فهذا مقياس النمو الصحيح لديها تلك الأيام، وأعتقد أنه ما زال إلى الآن.

رغـــم أن أنفاسي وأنـــا أنظر من ثقب الباب تعـــود لي، إلا أنني أتجاهلها وأســـتمر في التطلع إلى الصالة التي أصبحت الآن تذكرني بالصفعة الصماء تلك، التي استمر الخوف منها سنوات. لا أستطيع أن أعمل أو حتى أتحرك من خوف الصفعة. لقد أصبح الخوف هو الأصل في كل التصرفات، ولم أشـــعر بغربة مع نفسي نحو الخوف، فقد نسيت الصفعة وبقي الخوف في داخلي إلى أن أصبحت تصرفاتي محاصرة بالخوف.

وللعلـــم، لقد اكتشـــفت في الحلم أن والدتي دائـــمًا هي الرعب القادم من الســـماء. طلبت مني بصوتها الحازم طلبًا متكررًا وكأنها تعرف أنني لا أسمع جيدًا أن:

"أجلس زي الناس
وآكل زي الناس
وأتكلم زي الناس
وأشرب زي الناس
وأصلي زي الناس
وأمسك زي الناس
..."

كل شيء يجـــب أن يكـــون مثل الناس، دون أن تحـــدد أو تذكر لي مـــن هم هؤلاء الناس. حتـــى أصبح الحلم ممتلئًـــا بالخوف من الناس. وظللت أترقب وصولهم في أي لحظة. وأحيانًا أشعر بأنهم يراقبونني بأعينهم الواسعة مسلطين علي نظراتهم المرعبة. حاولت أن أنهي الحلم وأنام، ولكني الآن أشعر من ثقب الباب أن النوم لن يأتي سريعًا، فنظـــرات والدتي وزوجتي مصوبة نحو الباب. وتبدو

الصالة خالية تمامًا من الأصوات.

٢١

أسماء الإنترنت المستعارة كثيرة جدًا لديّ، وتبلغ أكثر من أربعة عشر اسمًا. فأنا أستخدم أسماء سيدات ورجال، وأطفال ومراهقين، وعجائز وشيوخ دين، وكذابين ومحتالين، ومهرجين وأشياء أخرى كثيرة.

وأتعجب من مفهوم منتشر في الإنترنت عن أن هناك ازدواجية منتشرة بين المستخدمين، وفي الشارع وبين الناس. وأحيانًا يحتدم الحوار مع جارنا محمد، المدرس في المدرسة الابتدائية القريبة من البيت، حول هذا الموضوع. وهو متقزز من الازدواجية في المجتمع كما يقول ووجهه مشمئز بشدة:

- ازدواجية المجتمع شيء لا يطاق..

أنا لا أجد أي ازدواجية ولا ثلاثية ولا حتى رباعية. ولا أجد سببًا لكل هذا الانزعاج الذي يدفع للمرض!

فنحن كبشر كلنا نعيش نفس الحياة ونفس الظروف، ولنا نفس الدين الإسلامي الحنيف طوال النهار والليل. ولكننا ننام، وأثناء النوم نحلم ونتحول إلى عالم آخر نكون فيه أناسًا آخرين، ونتصرف بطرق مختلفة ونحمل تفكيرًا مختلفًا وقدرات مختلفة.

وهذا نفسه يحصل في الإنترنت أو العالم الافتراضي والذي

هو العالم المختلف، والذي يجب أن أكون فيه كما أحلم أن أكون.
فتأتيني أحلام اليقظة:

فمرةً، أكون منفعلاً وهجوميًا وبي الكثير من التسلط، فأستخدم اسمًا مستعارًا.

وفي حلم افتراضي، أكون في قمة المثالية والأخلاق، فأستخدم اسمًا مستعارًا.

وفي حلم افتراضي، أكون في قمة الرومانسية، فأستخدم اسمًا مستعارًا.

وفي حلم افتراضي، أكون في قمة الإحباط، فأستخدم اسمًا مستعارًا.

وفي حلم افتراضي، أكون في قمة التدين، فأستخدم اسمًا مستعارًا.

وفي حلم افتراضي، أكون في قمة الاشتياق، فأستخدم اسمًا مستعارًا.

وفي حلم افتراضي، أكون في قمة الشهوة الجنسية، فأستخدم اسمًا مستعارًا.

وفي حلم افتراضي، أكون في قمة القسوة، فأستخدم اسمًا مستعارًا.

وفي حلم افتراضي، أكون في قمة الرحمة، فأستخدم اسمًا مستعارًا.

وفي حلم افتراضي، أكون في قمة الكذب، فأستخدم اسمًا مستعارًا.

وفي حلم افتراضي، أكون في قمة الأدب، فأستخدم اسمًا مستعارًا.

..

قائمة طويلة لا تنتهي من الأحلام والأسماء المستعارة تجعلني موجودًا في النت طوال اليوم، مستخدمًا أسماءً مستعارةً حسب حلم اليقظة الذي يناسبني ذلك اليوم، لأبدو لنفسي مهمًا جدًا، ولأملك قدرات كل العقول الجبارة. فلا تسعني الأرض، وتضيق بي كل الفضاءات الحقيقية والافتراضية، فأذهب للأحلام، وفي أحايين أتجه للواقع بكل ما أملك من عبقرية، منتظرًا الاهتمام الدائم بحضوري.

٢٢

أهرب في أحيـــانٍ إلى النت فارًا من الكثير مـــن الحكايات عن الجيران الجـــدد القادمين من كل مكان إلى جدة، حتى إنني أشـــعر بالغربة في وســـطهم. سكنوا كل البيوت المجاورة والبعيدة، ولكن حكاياتهـــم الجديدة والغريبة تدفع إلى الحيرة. خوفهم من النســـاء وعلى النساء وللنساء أربكني وجعلني لا أصدق ما أسمع وأقرأ في المنتديات وفي فيس بوك وأماكن أخرى لا أتذكرها في النت. آخرها إحدى القارئات علقت على ما كُتب في صفحة في فيس بوك، أنقله لك يا دكتور كما هو:

"وأذكر جارًا لنا في منطقة ســـكنية عســـكرية كان، سامحه الله، يترصد النســـاء اللاتي يخرجن دون قفازات تغطي أيديهن، فيعرف منازلهن، ثـــم يطرق الباب في وقت وجـــود أزواجهن ليناصحهم فيما رأى من خلاعة زوجاتهم بحســـب تعبـــيره. وذات ليلة، كمن لهن في سيارته يســـتمع إلى القرآن الكريم ونشرة الأخبار المسائية، وكنت أنا وشـــقيقات زوجي عائدات من زيارة جارة لنا وضعت مولودًا، وكان الوقت عقب صلاة العشاء ونرتدي في ذلك الوقت عباءات على الرأس ومتغطيات، رغم ظلام الشـــارع إلا من بعض

الأنوار المتباعــدة، ولم نكن مرتديات تلك القفــازات، خاصةً أنا لأني لا أعــرف كيف أتصرف حين ألبســها وأحمل طفلي وحقيبتي وأمسك ببعض عباءتي هههههه، ولما وصلنا لمنزلنا اتصلت بي زوجة جارنا مراقب نساء الحي هههه، وبعد السلام والكلام قالت: "الله يهديكن يا بدور أنتِ وأخوات زوجك. ليش ما تلبسن دسوس؟" هههههه بلهجة جنوبية طبعًا هههه أي قفازات.

قلت: "وليش كيف عرفت؟ وفين شفتينا؟" ضحكت وقالت: "أبو محمد شافكن، وجاء غاضب وقال انصحي زوجة أبو عبد الله واللي معها.. شفتهن بدون دسوس ولا شراريب في رجولهن وكمان لابسات كعوب عالية" هههههه

قلت: "يا حبيبتي الوقت ليل، واللباس ساتر، وأنا أحمل طفلي، وأيادينا مغطاة بما فضل من عباءاتنا، وزوجك الله يشــفيه من هذا التشــدد المقيت ولو كنت لمحته أو أعرف أنــه يراقبنا لفقأت عينه بحجــر. هههههه والنصح لمن يلبســن بشــكل فاضح، ويخرجن للشوارع، وعليه أن يتقي الله في حقوق جيرانه لا يتسبب في خراب منازلهم لما يدربل عيونه على نسائهم ويشكوهن لأزواجهن، وينتبه لنفسه فقد يكمن له الجيران ويضربونه يومًا ما". المهم كلامي هذا قد حصل له بعد ثلاثين عامًا تم ضربه وتهديده بالقتل لما نقل لمنطقة سكنية أخرى. هههه فالتشدد ينقلب على أصحابه سبحان الله".

لم أفهــم بعض الكلــمات ولكني فهمتها من الســياق. وأحيانًا أكتشف أن النت أيضًا مثل البيت وبلا نساء، مجرد أسماء وكلمات، والكثير من الرومنسية والشتم والعنف، والصور المفبركة والخداع. كلها تدفعني إلى الأسماء المستعارة حسب مزاجي، وأبدأ في الكتابة

معهم متسلحًا بكل المعاجم ومفتقدًا كل نساء العالم.

٢٣

تتداخل الأحلام وأجد نفسي أحلّق في اتجاه مختلف أمام نظرات والدتي، وأحيانًا، زوجتي. وأرتبك لدقائق إلى أن أستعيد توازني وتختفي الأسماء المستعارة. وأعود إلى الواقع متلمسًا الأشياء من حولي وأجزاء من جسدي، وأمسد على لحيتي بعض الوقت مستجلبًا الوقار والرهبة، وحينها أشعر وكأني أصحو على يوم جديد بعد نوم طويل وأحلام متفرقة وأحداث وأنفاس وتقلبات.

عادة يبدأ اليوم في بيتنا منذ الصباح الباكر جدًا، حتى إنني في بعض البدايات أعتقد أن اليوم السابق لم ينتهِ بعد. ينهض الجميع بما فيهم أنا. كانت زوجتي دائمًا تحرص على الاستحمام منذ الصباح، ليس للنظافة دخل في هذه العادة المزاجية، بل لتعطي والدتي انطباعًا جنسيًا لما حصل ليلة البارحة. فقد كنت أول أيام الزواج، وبعد ممارسة الجنس عدة مرات في الليلة الواحدة، أشعر بانتشاء كبير، وأجد أن جسمي تضخم بعض الشيء. ووالدتي ترشقني بنظرات إعجاب وكأنني قد اقتحمت قلعة حصينة بسيف من لحم!

ولكني اليوم منذ الصباح، نهضت من على السرير ذي المرتبة المركبة من حديد وإسفنج وقطن وخيوط وأشياء أخرى لا أعرفها، ولكنها كانت مريحة وتسحبني لأبقى أطول وقت ممكن ممددًا عليها.

اندفعت بعيدًا وأنا أكتشـف أنني نمت منتصرًا، وأتذكر انسحاب زوجتي من الغرفة بعد أن كانت تتراكم بجواري لسنوات. اتجهت إلى الحمام وشعور بسيط بالفرح يدوي في رأسي.

كانت الساعة تشير إلى السادسـة صباحًا وبضع دقائق، عندها نظـرت إلى وجهي في المرآة وأدركت كم هو ممتلئ بالشـعر وأنني أبدو كقرد. غسـلت وجهي وعاودت النظر، ولكن القرد لم يتغير إلى أن خرجت من الحمام بسرعة وأنا أستعيذ من الشيطان الرجيم.

لم تكن زوجتي ممددة عـلى السرير نصف نائمة كعادتها. نظرت إلى مكانهـا في السرير واتجهت مباشرة إلى الركن. فردت سـجادة الصلاة على الأرض، واتجهت إلى مكة وبدأت بصلاة الفجر.

خلال الصلاة، أتاني صوت حركة زوجتي مكتومةً على السرير خلفي. كنت دائمًا أسـمع صوت حركاتها تلك وأنا أصلي الفجر، ولكنها اليوم ليست موجودة. لابد أنها أتت من الحلم، وهذا يحدث لي كثيرًا. يتمدد الحلم بعض الشيء إلى حياتي الشخصية كما أتمدد أنا قليلاً في أحلامي لأجدها فرصة مناسـبة لي بأن أعيش بصورة أكثر وضوحًا. لقد بدت لي فعلاً أنها نهضت ببطء شـديد وكأنها ستهبط على سطح القمر. كانت نهاية صلاتي، نظرت نحوها بدهشة هو ما دفعها، على ما بدا لي، من همس صوتها الخشن:

- صباح الخير.

- ..

ثم بعد بعض الوقت قالت:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- ..

هززت رأسي ولم أجب بشيء، والتفتّ إلى لملمة سجادة الصلاة بسرعة. اتجهت إلى ثقب الباب ونظرت إلى صالة الشقة ذات الأربع غرف التي أسكنها منذ زواجي. تحتل الشقة الدور الأرضي في بيت والدتي، الذي ورثته عن أبيها، وتسكن هي الدور الأعلى، وبه أربع غـــرف أيضًا. هذا هو البيت؛ طابقان وفي كل طابق شـــقة واحدة. يبدو لي البيت صغيرًا اليوم، وإن كنت في بعض الأحلام أشـــعر به وكأنه ناطحة سحاب، وأجد نصف العالم تحت نافذتي.

كنت وأنا أســـتعد للزواج قد أثثت غرفة النوم وغرفة للضيوف مـــن الرجال وغرفة للضيوف من النســـاء (الحريـــم) وغرفة لنوم الأطفال، والتي تحولـــت مع الوقت وقلة الاســـتخدام، إلى غرفة لمبيت الضيـــوف القادمين من مكة أو المدينـــة فقط. فكل معارفي، أقصـــد معارف والدتي، إما من مكة أو مـــن المدينة. انتقلنا إلى هذا البيت من مكة في يوم مشـــمس عندما كنـــت صغيرًا. لا أتذكر من انتقالنا ســـوى الأغراض (العفش) المتكسرة، التي كنت أقذف بها في حاوية النفايات القذرة القريبة من باب البيت.

٢٤

في اليوم التالي، عندما نظرت من ثقب الباب، استقبلتني الصالة بنورها المعتم ونشرت بداخلي الرحمة، لأبدأ بها هذا اليوم الذي ذكرني بوالدي. ترددت بعض الشيء، هل أحزن أم أتألم أم أستغفر الله؟ أنا مرتبك، فلم أعرفه سوى من بعض الصور القديمة، وكلمات متباعدة من بعض الأقارب. نسيت تفاصيلها وأصبحت كلمات باهتة، مثل صورة مهتزة شديدة القدم. لكني كلما أتذكره أشعر بالرحمة حاضرة حولي. وفي بعض الأحلام، أجده مبتسمًا ولكني عندما أنهض لا أتذكر ملامحه بدقة، ويبدو لي دائمًا بعيدًا جدًا وكأنه في الطرف الآخر من الأفق.

ابتعدت عن ثقب الباب وأنا أفكر في الاسم المستعار المناسب للرحمة. وكيف سأبدأ الكتابة في النت وبكلمات مجنحة عن الرحمة المنعدمة في البشر. وكيف أن الرحمة نُسيت وتغيبت.. إلى آخر تلك العبارات التي لا أعرف من أين تأتي، ولا كيف تتسلل من بين أصابعي إلى النت. أنبهر بها وكأنني اعتصرتها من الهواء. أكتبها بسرعة وأرسلها إلى النت على صفحة فيس بوك متخلصًا منها سريعًا.

أهدأ بعدها وقد اعتراني نوع من التعب البسيط وخدر في

النظرات. تعالى صوت والـدتي قادمًا بقوة من الصالة، وقطع علي استرسالي في الراحة:

- السلام عليكم.. لا إله الا الله.. أصبحنا وأصبح الملك لله.

تقولها بسرعة وكلماتهـا متلاحقة. أسرعت إلى ثقب الباب أنظر منـه لأجدها تنظر في كل أثاث الصالة، حتـى الصور تتطلع إليها كما تفعل في كل يوم وكأنها تراهـا لأول مرة. كنت دائمًا ما أحاول أن أرد على سـلامها، ولكنها لا تترك لي فرصة، وتبدو وكأن نكد الدنيا على رأسـها. أخاف أن أزيد عليها همها، فأبتلع قسوة كلماتي بماء الصمت المر.

اليوم، من ثقـب الباب، ارتفع صوتي مبـاشرة ورددت عليها السـلام وكأنني أقف أمامها مباشرةً. لا أعرف من أين أتتني هذه القوة، ولكني انتشـيت وشـعرت بفرح عندما انتصبت وذهبت لأنظـر إلى وجهي في المرآة. تأملت محتويـات طاولة الزينة القابعة تحت المـرآة، وتذكرت زوجتـي. لابد وأنها تحتـاج إلى بعض من أدواتها. تجاهلت كل ما حـولي وتأملت نفسي في المرآة، لقد أجبت والدتي بقوة وهذا هو المهم. تمددت على السرير وإحساس بالإنجاز يعتريني، ونمت مباشرة دون أن أسـمع الصيحـات القادمة من الصالة، وصوت والدتي السحيق يمزق الهواء حول أذني.

٢٥

في الصباح، مشـــيت كثـــيرًا في غرفة النـــوم، ونظرت من ثقب الباب أكثـــر من واحد وعشرين مرة دون أن أشـــعر بالتعب. كان حلم البارحة مرعبًا أربكني. لقـــد دفعتني زوجتي من نافذة غرفة النوم إلى الأرض. كان البيت عاليًا والأرض بعيدة. عندما نهضت من النوم، حمدت الله كثيرًا واستغفرت. لقد نهضت قبل أن أرتطم بـــالأرض الصلبة. اتجهت مباشرة إلى ثقـــب الباب، ولم أرَ أحدًا في الصالـــة. كان الظلام كثيفًـــا والأصوات معدومـــة. أعدت النظر لأتأكد، ولكن الصالة لم تتغير. أكثـــر من واحد وعشرين مرة، ولم أتأكد بعد من شيء له قيمة تذكر.

تمـــددت على الأرض ونظـــرت من تحت عقـــب الباب، ولكن المنظر لم يتغير. عندها تذكرت والدتي التي انتقلت منذ سنة إلى غرفة الأطفال بعد أن اشترت غرفة نوم جديدة. تركت شقتها في الطابق العلوي ونزلت إلى شـــقتي. كان الدرج صعبًا عليها ولم تعد قوتها كما كانت. لذلك قررت في أحد الأيام الانتقال إلى شـــقتي. نزلت وأخبرتني أنا وزوجتي، ثم أتى الأثاث في اليوم الثاني. تم كل شيء أسرع مما كنت أتوقع.

لم يعـــترض أحـــد، وإن كانت زوجتـــي متفاجئة بهـــا ولكنها

استسلمت في النهاية للأمر. أصبحت والدتي تنهض منذ الصباح وتجلس في الصالة. ولكنها الليلة ذهبت مبكرًا إلى غرفتها. لا يوجد أحد في الصالة. تأكدت من ذلك ونمت على الأرض، وأنا أنظر إلى الصالة من تحت عقب الباب.

٢٦

نهضت قبل أن يــراني أحد منهم. خرجت بسرعــة من البيت واتجهت إلى العمل. انتظرت في السيارة أكثر من ساعة ونصف إلى أن فتح الباب للموظفين. اتجهت إلى مكتب المدير بسرعة متحاشيًا نظرات البواب المستغربة. انتظرت المدير إلى أن فتح الباب، وجلس على مكتبه، ثــم أعطيته ورقة الإجازة. بعد أن وافق عليها خرجت بسرعة قبل أن يبدأ بتلميحاته عن الزوجــة الثانية، ويتخابث عليّ بنظراته الماكرة والتي في معظم الأوقات لا أفهمها تمامًا، وإن كنت أشــعر بمغزاها الماجن. ركبت الســيارة وعــدت إلى البيت، وأنا أتلفت حــولي هاربًا من نظرات التعجب مــن زملائي في العمل. طوال الطريق وأنا أحاول أن أتماسك وأردد قائلاً:

- إنه حلم.. إنه حلم.. إنه حلم فقط.

عندما دخلت البيــت، كانت والدتي قد انتهــت من الإفطار، فجلســت تتطلع إلى التلفزيون بصمت. اتجهت مباشرة إلى غرفتي وأغلقــت الباب بسرعــة وانحنيت أنظر من ثقــب الباب. كانت زوجتي (وقــد ركبها عفريت النظافة) تصيح بالخادمة المنزلية بكل أنواع الأصوات، وتقذفها بكل الكلمات البذيئة، ونظرات القرف تطل من عينيها وكأنها ستعتقلها إلى السجن بعد قليل. لم أستطع أن

أفهم تصرفها هذا أبدًا. تعيده كل يوم تقريبًا.

من نِعم الله على الخادمة أنها لا تعرف اللغة العربية. لذلك فإنها لا تفهم معظم الكلمات القاسية والسباب الذي تقذفه زوجتي في وجهها. وإن كنت متأكدًا من أنها تشعر بقساوة الكلمات من النظرات النارية الملتصقة بها. دخلت إلى مكتبي بسرعة قبل أن يصلني نكد النظافة المنتشر بطول الصالة وعرضها.

وما لم أفهمه، أيضًا، يا دكتور لماذا توجد خادمة في البيت؟ ليس لدي أطفال، والبيت صغير، وزوجتي لا تعمل؟ ومع ذلك أصرّت على وجود الخادمة، ووالدتي كانت معها. وهذا هو الشيء الوحيد الذي وقفت والدتي معها فيه، رغم كل الاختلافات المكتومة والتي لا تُشاهَد ولكنها تتحرك تحت الرماد.

أسندت ظهري إلى الباب وأخذت أتنفس، لست مصدقًا أنني خرجت من الغرفة وذهبت إلى المدير وطلبت إجازة. تسارعت أنفاسي أكثر إلى أن نهضت من الأرض، وألم أسفل الظهر يكاد يخل من توازني. كانت الغرفة مظلمة، وقد تبدد الحلم تمامًا، ولم أجد بدًا من العودة للسرير ومواصلة النوم بصورة أكثر راحة من قبل.

٢٧

عندما نهضت في اليوم التالي، اتجهت إلى النافذة مباشرة وتأكدت من أنها مغلقة، ثم نظرت من ثقب البـــاب. كان الوقت ظهرًا ولا أحـــد في الصالة. عدت إلى النافذة الخشـــبية القديمة، ونظرت من خلالها إلى الشـــارع. بيتنا يطل على هذا الشارع منذ أكثر من أربعين ســـنة. انتقلت إليه والدتي من مكة بعد أن عُينت في مدرسة البنات الابتدائية في البغدادية الشرقية. اســـتمرت والدتي في التدريس إلى أن تقاعدت، وجلســـت على الكنبة تشاهد التلفزيون في شقتها، ثم انتقلت إلى شقتي لتستمر في مشاهدة التلفزيون، ومن ثم تنظر إليّ، فقد كُنت بجوار التلفزيون بصورة دائمة، قبل أن أختفي في الغرفة وأنظر أنا إليها من ثقب الباب.

مـــع الوقت أصبحت والدتي قليلة الحركـــة، لذلك كانت تتابع جميع برامج التلفزيون مهما كان نوعها. ومع كثرة القنوات الفضائية أصبح من المستحيل عليها التحرك من أمامه، حتى وهي ذاهبة إلى الحمام تأخذ معها الريموت كونترول حتى تتمكن من متابعة صوت البرامج أو المسلســـل المعروض دون تحويل القناة، لتعود بأسرع ما يمكن والاهتمام الشـــديد يبدو عليها، ويشـــعرني بجديتها الكريهة واهتمامها الكبير بتوافه الأمـــور. تعود بعدها إلى صمتها على الكنبة

كمن لم ينهض من قبل، وتكتسي نظراتها كسلاً ويتهدل جسدها، فتنطلق حولها هالة السكون المعتادة وتتباطأ أنفاسها وتبدو كأنها نائمة.

كان يسود البيت رتابة في الحركات شديدة الملل. أنهض إلى الحمام ثم أعود إلى جوار التلفزيون، ثم تذهب أمي إلى الحمام وتعود إلى مكانها لتنقل نظراتها بيني وبين شاشة التلفزيون. قد تتحرك زوجتي بعض الشيء بقدر ما تسمح به الكنبة التي تجلس عليها، ولكنها تعود إلى سكونها السابق، ويرتفع صوت تنفسها قليلاً ثم تهدأ وتعود إلى النظر إلى شاشة التلفزيون وكأن شيئًا لم يكن. تتكرر هذه المشاهد دائمًا كل يوم، تعاد بلا كلل أو ملل وكأنها حركة ثابتة الدوران. حتى بعد أن اختفيت في غرفة النوم، بقيت كما هي تتكرر ولكن بدوني.

والآن يا دكتور أنظر إليهما من ثقب الباب وأنا غير متأكد من أنني أراهما أمامي فعلاً، أم أنه حلم يعود ويتكرر باستمرار ويكاد يفقدني التركيز.

٢٨

منذ سنوات، هناك في البداية، عندما وافقت على الزواج، لم أكن أرغب في الزواج كما أفهمه الآن، ولكني وافقت كي أمارس الجنس فقـــط. رغبت في أن أجرب كيف من الممكن أن أمارس الجنس مع النساء.

فقد تدفقت الدماء في جســـدي، وأصبح مـــن الصعب علي أن أنهض من النـــوم دون أن ألفت الأنظار إلى الخيمة الكبيرة المنتصبة في منتصفي. مهما حاولت الانحناء فقد كانت واضحةً، تدفعني إلى الإسراع نحو الحمام لأقبع فيه بعض الوقت إلى أن يزول التوتر.

لاحظت أمي تصرفاتي الغريبـــة وتأخري في الحمام وبللي اللزج في بعض الأيام. كان الدفق الكثيف في المســـاء يسبب لي حرجًا في البداية، ولكني مع الوقت تعودت على نظرات أمي المبطنة بابتسامة فرح.

كنت وقتهـــا في الصف الثالث المتوســـط، وتعرفت على العادة السرية من صديقي في الفصل والذي يأتي بصور لنساء عاريات.

عادة مـــا كان ينتابني الخوف بعد كل صـــلاة جمعة، إذ أكون قد (استحميت) بعد أن مارســـت العادة السرية، وقبل أن أذهب إلى المسجد. وأثناء الخطبة أشـــعر بالذنب يتسلل إليّ ويعتريني. همٌّ لا

أعــرف قدم من أين؟ ولكني أدرك تمامًا أنني الســبب فيه. فحكم العادة السرية الذي قاله إمام المســجد صريــح ولا يقبل الجدال. واستمراري في الممارســة تلك يشعرني وكأنني مدمن على ارتكاب المعاصي ولا أخاف الله رب العالمين.

مما يزيد من همي أنني لا أســتطيع التوقف. وإن كنت كل جمعة أســتغفر الله كثيرًا وأتعهد بعدم العودة، وأنا صادق، وبنفس قوية متمســكة بالجنة وخائفة مــن العقاب. ومع ذلــك لا ينتهي يوم السبت أو الأحد إلا وأكون قد مارست العادة السرية أكثر من مرة. فالصور والأفلام حولي لا ترحم. اســتمرت معي هذه الحالة أكثر من خمس ســنوات، حتى أخذتني أمي إلى بيت صديقتها وخطبت ابنتها المصونة لي وأنا في منتصف دراستي في الجامعة.

لا أتذكــر التفاصيل. فقــد كنت منتفخًا كالديــك، وأعتقد أن نظرات والــدتي تدفعني إلى الانتفاخ أكثر. يعود إلي الإحســاس، الآن، بأنني مهم جدًا في تلك الأيام. الكل يسأل عن العريس وعن شــكله؟ وماذا يدرس؟ وماذا يحب؟ ومــاذا يكره؟ تفاصيل كثيرة لم أكن أهتم بها أنا أصــلاً، ولكنها ظهرت أمامي فجأة، وكأنها من مقومات الحياة التي يجب ألا يستهان بها.

فلم أكن قد عرفت ما لوني المفضل؟ أو أكلتي المفضلة؟ أو قصة الشعر التي تعجبني على رؤوس النساء؟

كانت الخادمة الإندونيســية الطيبة منشــغلة بالبيت وبطلبات الضيــوف، وطلبات والدتي واحتياجــاتي. لم يكن لديها وقت كي تعــرف ما لوني المفضــل. وأعتقد أنها هي لم تكــن تعرف ما لونها المفضل. كانت الأيام متشــابهة لديها، حيث كنــت أنا جزءًا منها.

وأجزم أنني كنت بالنسبة لها الجزء الممتع. ولكنها لم تتكلم عن ألوان أو أكلات. كانت تطعمني وتنظفني وتلعب معي فقط.

٢٩

اليوم انطلقت في غرفة النوم بلا قيود، وأجدني أتذكر كل الأشياء والأحداث التي مرت دون تردد. حتى إنني كنت أتعجب من حب زوجتي للأمـور التافهة، مثل والدتي، وتجعل منها قضايا مصيرية. أعترف أنني لم أحبها قط في حياتي، وأنني كنت أحاول فقط أن أجد لهـا مكانًا في نفسي. ليس هذا انتقاصًا منها، ولكنه بالتأكيد تشـوه كبير وجهل في الحب لدي. لم أسـتطع أن أحب زوجتي فقط لأنها رضيت أن أمارس معها الجنس. كنت في البداية أعتقد أن هذا قمة الحب من المرأة، ولكني اكتشـفت بعد مرور الأيام أنني لا أعرف وأننـي محتار، وفي النهاية أصبحت أجزم أنني جاهل تمامًا بما أنا فيه من حيرة.

كان بإمكاني أن أمارس الجنـس دون أن أتزوج وأنا أعرف أن المرأة لن تحبني. بل أعتقد أنها (سـتتقرف) من شـكلي، بكرشتي المتهدلة أمامي وشعر ذقني الكث وأنفي الضخم المعلق في منتصف وجهي. كلها سـتدفعها للهـروب مني. ومع ذلـك كانت تلك السـيدة على استعداد كامل بأن تمارس معي الجنس من أجل المال. لقد أرشدني إليها سائق التاكسي الذي أوصلني من ورشة إصلاح السيارة إلى البيت. لم يستغرق الأمر معه سوى كلمات بسيطة حتى

اتجهنا إلى شـقة بالقرب من شـارع التوبة بجوار عمائر الإسـكان بالشرقية.

فتح الباب وأطلت المرأة بكامل مكياجها والقليل من الملابس. كانت مفاجأة لي تمامًا، فقد كانت صارخة الجمال القبيح. أعتقد أنها أجمل لو غسـلت وجهها من المسـاحيق التي وضعت على وجهها بطريقة حمقاء جعلت منها مسـخًا بشريًا. كدت أن أنهض من النوم أو أعاود النوم. لقد كان موقفًا لا أحسد عليه.

لم أتحمل المشـهد، فعدت بسرعة إلى سـائق التاكسي ورجعت إلى البيت وأنا أسـتغفر الله من كل ذنب عظيم، وأكاد أستفرغ من الرائحة النتنة التي سكنت أنفي. كان من الممكن أن أمارس الجنس مع تلك المرأة لـو كانت الظروف أجمل قليـلاً. ولن أبادلها الحب وهي لن تعطيني الحب بالمقابل.

ولكني لم أستطع أن أحب زوجتي، وفي نفس الوقت أنا مستمر في ممارسـة الجنس معها بشـكل آلي. أحيانًا أهرب منها وأنفاسها الكريهة، فهي لم تكن تنظف أسـنانها قبل النوم. وفي ليلة، لم أستطع أن أتحمل رائحة فمها الكريهـة، فنهضت مباشرة من جوارها على السرير واندفعت إلى طرفه. كنت بائسًـا ومتقـززًا وأكاد أتقيأ من الرائحـة. أتت مسرعة وأخذت تتكلم بجانـب وجهي ورائحتها تنطلق وتملأ الهواء حول أنفي. مما دفعني إلى الوقوف ومصارحتها بالحقيقة التي كنت أخفيهـا وأتحرج من ذكرها أمامها. وكم كانت دهشتي كبيرة عندما قالت:

- إنها رائحة قادمة من المعدة..!

- ..

لم أجب. فقد كنت مشـــدوهًا بتفاهة التبرير. أدركت عندها كم هي ســـاذجة. لم أتجادل معها. استغفرت الله كثيرًا على كل الذنوب التي اقترفتها في حياتي من قبل. شعرت بأن هذا عقاب من الله أنزله علي لعدم قدرتي على حب زوجتي.

في اليوم التـــالي كنا عند طبيب الأســـنان الذي قـــرر لها تقويمًا للأســـنان، وبعض العمليات لترتيب الأســـنان، وغســـولاً للفم ومعطرًا. استمرت سنتين ونصف إلى أن نسيت كل شيء عنها وعن أســـنانها، وأدركت كم أنا مذنب في حياتي. وابتعدت عنها خطوة واحدة بدت لي بسيطة ولكنها دائمًا موجودة بيننا.

٣٠

خلال الأسبوع الماضي، أصبحت أستغفر الله كثيرًا قبل أن أنام، وعندما أقوم، وبعد الصلاة، وفي كل وقت تقريبًا. رغم أني لم أرتكب أي ذنب ولكنني أحتاط وأخاف من الشرك الخفي الذي ذكره إمام المسجد، وأعتقد أنه ربما كان هناك ذنب خفي قد ارتكبته، وأن الله يعاقبني بكل هذا الهم الذي يحيط بي داخل هذه الغرفة اللعينة. حتى إن والدتي ومن نظراتها نحو ثقب الباب، أشعر أنها تفهم بعض الأشياء الخاصة بي. وكأنها في بعض الأوقات تود أن تسمعني أتكلم لتتأكد فقط من ظنونها. لكني أبقى أمامها هماً متراكم الصمت، ونظراتي تحاول التحدث بلا كلمات مسموعة. أهرب منها بسرعة، وأختفي في غرفتي محاولاً نسيان نظراتها، سادًا ثقب الباب بمنديل من الورق حتى لا تتسلل نظراتها إلى أحلامي عندما أنام.

٣١

لم يكن هذا اليوم مميزًا أو بـه اختلاف عن بقية الأيام الأخرى. كان يومًا مهمًا بالنسبة لي كي أكتب كما يحلو لي وكيفما عنّ لي. أقذف بـكل ما أعرف على الورق وأدع بعد ذلك كل شيء وأذهب لأنام. حتمًا سأكون متعبًا بعد كل الكلمات التي مرت على أصابعي. والآن أتأكد من أن الباب مقفل وأنظر من الثقب لأتأكد من فراغ الصالة. أعـود بعدها إلى النت وأبحـث في (اليوتيوب) عـن أغاني وردة الجزائرية التي تعرفت عليها قبل سـنوات قليلة، اسـتمعت إليها تغني:

"ويا روحي ساعة ما ألقاك..
مش بس أوقاتي بتحلو..
دي العيشة والناس والجو
والدنيا..
الدنيا بتضحكلي معاك"

أرتفع يا دكتور بعيدًا في سماء النشوة متناسيًا بعض الهموم. وأتاني اعتقاد أن الموسيقى بكل ما تملك من وهج وارتياح وخلود ورغبة

في الوصول إلى الروح ستكون معي. بصفيرها المتعالي وانغماساتها المتماهية. سيكون معي كل تصفيق براحة الأيادي التي كان لها طعم اللقاء والحب.

يبدو أنني قد انجرفت في كلمات الأغنية وأجوائها، وتلبستني رغبة في الحب البعيد والذي يشهر الكلمات على الانترنت ويشعر بالفقد والمزيد من الألم.

اتجهت إلى جهاز (اللاب توب) وبدأت في مغازلة كل الأسماء النسائية المستعارة. تمددت كلماتي في صفحات فيس بوك، وأصبحت كل العبارات السخيفة المنشورة، وكلمات الحب الساذجة هي قمم في الروعة وعلامات مقدسة في الحب. كانت الكلمات تعتمد على صورة التي تكتب، فإذا كانت مغرية جنسيًا أسهبت في المديح ورصف كلمات الإعجاب المبهرة. وإذا كانت الصورة جميلة فقط تألقت كلمات الأدب المبطنة بإعجاب وعلامات عدم التصديق من الأجواء التي تخلقها الكلمات التي خطتها أناملها الناعمة. أستمر في التقلب بين الصور إلى أن أهدأ ويعتريني الملل.

٣٢

تعلم يـا دكتور أنه كثيرًا مـا تكون الوحـدة في غرفتي صامتة ويعتريها الكثير من الهم، وأحيانًا تكون مملة وأشعر بالاختناق، رغم كل الأصوات التي تأتيني من خارج البيت ومن داخله، وأصوات ارتطام بعض قطع الأثاث وصرخات زوجتي على الخادمة وشخير والدتي. جميعها تدفعني إلى الملل والشعور بالسأم.

وسـيلة التواصل مع نساء البيت شـبه معدومة ومقتصرة على الاحتياجات الرئيسـية، من أكل ولبس وبعـض الكلمات الباردة وبعض النفاق والكثير من الكذب المتفق عليه.

أعتقد أنني سـأغرد بهـذه العبـارة في (تويتر) بأحد أسـمائي المستعارة. فقد تلبسـني شـعور الملل. عادةً أجلس بعد التغريدة أراقب ردة الفعل لبعض الوقت، وأتابع (الريتويت) وكل الردود، ولكنـي اليوم لا أجد لدي رغبة في المتابعـة. لذلك أقفلت الجهاز وتمددت على السرير ناظرًا إلى السـقف، لتتجلى لي عدم قدرتي على الإنجاب التـي لم تفارقني منذ عرفت ذلك قبل ثلاث سـنوات. تلوح دائمًا لي كمرض لعين متمسك بي بقوة. أنا الآن في انتظار تقدم الطب حتى يجد علاجًا لحالة العقم التي أعاني منها. كلمات الدكتور تتردد في أذني كأنه قالها قبل قليل:

- ليس لديك القدرة على الإنجاب.

صدمت من كلام الدكتور. فقد كان صريحًا ومباشرًا، وأطراف كلماته تحمل حد السكين. كانت الكلمات تنزف من نظراتي ومن صوتي وشعرت بتهدم العالم من حولي.

نظرت بعدها إلى الدكتور متسائلاً:

- كيف..؟

- حسب نتائج التحاليل التي أمامي، فالحيوانات المنوية التي لديك بها ضعف وصفي وشكلي، وانخفاض وظيفي في طريقة عملها بعد القذف. ولديها بعض التشوهات التي تعيق نشاطاتها الحيوية خلال الحركة.

- لم أفهم شيئًا يا دكتور.. ممكن يكون الكلام أكثر وضوحًا؟

- لديك ضعف خلقي في الحيوانات المنوية.

- وهل له علاج؟

- إلى الآن لا.. ولكن الأمل بالله كبير.. والطب يتقدم بسرعة هذه الأيام.

مع الوقت، واتضاح الرؤية أمامي عن عدم القدرة على الحمل، أصبحت زوجتي تخاف أن أتزوج امرأة أخرى. كانت زوجتي تدرك تمامًا أن هذا القرار ليس في يدي، بل إن والدتي هي التي ستزوجني بالثانية كما أنها هي السبب في زواجي منها. وهي السبب أيضًا في معرفة عقمي عندما قررت والدتي أن نذهب إلى المستشفى للفحص الطبي. خلال عام كامل تأكدت تمامًا أن المشكلة هي ضعف الحيوانات المنوية لدي. الانتصاب وكمية السائل المنوي وحجم العضو مناسب جدًا، كما قال الدكتور وهو ينظر إلي بخبث.

كانت والدتي في العيادة عندما أخبرنـــا الدكتور بالأمر، فقد بقيت زوجتي في البيت تنفيذًا لرغبة والدتي، ولم تسمع كلام الدكتور عن ضعف الحيوانات المنوية.

عندما خرجت من العيادة وجدت أن العالم أصبح خرابًا حولي. شعور بالفقد ظل يلازمني أسبوعًا بعد زيارة الطبيب، إلى أن نسيت كل الحكاية وأصبحت متصالحًا مع عدم الإنجاب. والآن يبدو لي أن السقف صافٍ، وبه الكثير من الهم المتصاعد من أرض البيت.

لم تهتم زوجتي بالموضوع. لقد كان همها منذ البداية زوج فقط. وكنت أنا ذلك الزوج بكل المواصفـــات اللحمية والغبية والمالية. كنت أمتلك بيتًا، وأعمل في الحكومة، ورجل. هذا كل شيء تريده تقريبًا.

يبدو أن حلمها في الحياة كانت مواصفاتي فقط. تحدثت معها في بعض الأوقات قبل ممارسة الجنس. كانت تمشط شعرها وتنظر إلى نفسها وتتجهز، وهذا يشـــغلها عن الكلام. عشر سنوات بعدها، والكلمات تتطاير بيننـــا في تلك اللحظة الحرجة، بين الاســـتعداد والرغبة ومحاولة الفهم التي لم تتم، وأعتقد أنها لن تتم أبدًا.

٣٣

بعض الأمور تتقرر في الخفاء حولي، حتى يتشـكل القدر الذي يتحدث إمام المسجد دائمًا عنه:

- ".. وبالقدر خيره وشره"

سـنوات أسـمعها منه في خطب الجمعة. لم أفهم العبارة تماماً ولكني مستعد أن أدافع عنها بحياتي!

لقد ولدت وعشت سنوات، وأصبحت والدتي تتحكم بحياتي. كل هذا قـدر. لن أعصي الله جـل جلاله وأرفضـه. آمنت بهذه العبارة، وأجدها ارتبطت بالنساء، فأنا لم أرَ في المملكة امرأة لم ترها والدتي، غير تلك التي جلبها سائق التاكسي قبل أن أنام. وأجدهن متشـابهات وفي أحيان كثيرة لا أجد الفـرق بينهن مهما كان الحلم طويلاً.

حتى إنني منـذ زمن بعيد، أصبحت مسـتمرًا في وتيرة واحدة للحياة. بسـاطة الحياة التي أعيشـها كانت لا توصف. من البيت إلى العمل، إلى البيت مرة أخرى. وأيضًا من البيت إلى المسجد، إلى البيت مرة أخرى. وفي أوقات، من البيت إلى السوق، إلى البيت مرة أخرى. عندما أسـافر من مكة إلى جدة، لا أنظر إلى وجوه النساء. فهذا حرام، وقد أرمى في نار جهنم يوم القيامة، إذا أنا لم أستغفر الله

على هذا الذنـــب العظيم. كيف وصل هذا الإدراك العظيم إلي وأنا في تلك السن الصغيرة؟ لا أتذكر.. ربما أتاني الإدراك في حلم بعيد تسلل إلى رأسي عندما كان الصداع يقسمه إلى نصفين.

٣٤

والنســـاء، يا دكتور، رغم قلتهن في حيـــاتي كن يقدن قدميّ إلى إمكانية أن أعيش متناسيًا كل أصقاع الأرض وما تحمله من خوف. ما كان يشعرني بالرضى هو انقيادي المطلق لهن (أو بشكل أدق لهما، الاثنتين فقط). لم يصلني اهتمام بلمزات الآخرين وهمســـاتهم، فقد كانت حياتي ممتلئة بالنســـاء حد التخمة. وإدراكي هذا مستمر إلى الآن. يتقدمـــن في الواقع والحلم، وأحـــس أني أتراقص مع الريح الشـــمالية بأنغام الأذان وموسيقاه التي تتردد خمس مرات في اليوم، لتتبدى الأوقات وكأنها قادمة من كل النساء في العالم.

لم أعد أهتم بإحبـــاط الفقد أو ألم الانتظار الممل. فالدقائق وكل أزمان التاريخ تتراكم عند قدمي وأنا أرتقي بها صعودًا إلى الطريق. كيف يمكـــن.. كل هذه العيـــون المائية، والابتســـامات الحمراء بأســـنانها الحليبية، وكل بهاء الشعَر الشـــمسي المشرق أن يتفتت في الواقع ويبقى معلقًا في حلم ليلـــة ظلماء، ليس لها قمر وتبدو كأنها ليلة صنعت من صمت الدهر.

عندمـــا نظرت من ثقب الباب، أدركـــت أن والدتي لم تكن هي المـــرأة الوحيدة التي عرفتها، ولكنها تبقى دائـــمًا أول امرأة عرفتها من النســـاء. وأنني عندما أنهض من النوم، أعرف أن كل النســـاء

سـيختفين في الأحلام، ويعود إليّ الشـعور بأني الوحيد في العالم المندس بين كلماتهن الرائعة.

٣٥

منـــذ أن بدأت الكتابة صبـــاح هذا اليـــوم إلى أن انتهيت الآن، الســـاعة التاســـعة، لم أذهب إلى ثقب الباب كي أنظـــر إلى الصالة اللعينة. لا أعتقد أنني ســـأتمكن من الكتابة لأربع وعشرين ساعة دون أن أنظر من ثقب الباب. أتوقف في أوقات لأســـتخدم النت بأسمائي المستعارة. وأتعامل بها مع الأسماء الأخرى بكل ما أملك من قوة وتدفق. وهذا يجعلني أتعب كثيرًا في اختيار الكلمات عندما أعود للكتابـــة. وأجد صعوبة أكثر في العـــودة إلى نفس الأحداث ومواصلة الكتابة عنها. يجب علي أن أتوقف عن الدخول إلى النت. اليوم على الأقل حتى أنتهي من هذه الكلمات العالقة في رأسي.

٣٦

كنت عندما تعتريني الرغبة الجنسية، أتذكر ما ورد في القرآن عن الزنى والجلد والعذاب الشديد الذي سينزل على جسدي، فأرتجف خوفًا من الاقتراب من النساء. وفي لحظات أخرى، أجدني منجذبًا تمامًا إليهن رغمًا عني، وأفقد عندها القدرة على تذكر العذاب. نعم لم أقترب من إحداهن، فقد كنّ يداعبن خيالي فقط. وأجد نفسي في الجنة محاطًا بنساء جميلات. ورغبتي فيهن لا تنتهي. وتبدو لي دائمًا متجددة، إلى أن توقظني زوجتي المبرومة كبرميل قابع على السرير بجواري. إذ بدحرجتها نحوي أشعر وكأن أنفاسي توقفت. لأنتفض دافعًا إياها إلى الناحية الأخرى من السرير، متأسفًا على النساء الجميلات اللاتي تبخرن من حولي. لتعود إليّ الرغبة الشديدة إلى الاستغفار، فأنهض من السرير وأتوضأ وفي أحيان كثيرة، كنت أستحم قبل أن أستقبل القبلة وأصلي ركعتين. كنت قبلها أرفع يديّ مناديًا ومناجيًا الله طالبًا الاستغفار والرحمة. فقد كنت أستعيذ ثلاث مرات من الشيطان، وكثيرًا ما كان الله يستجيب لدعائي. فتهدأ رغبتي الجنسية بعض الشيء، وتبدو لي زوجتي رائعة الاستدارة، فأتجه نحوها متجاهلاً ترهلاتها ومندفعًا في الجنس، باحثًا في كتل الشحم عن النقطة العمياء لأنغمس فيها

بقوة إلى أقصى حدود المتعة الممكنة.

ما كان يؤلمني أنني لم أكن أجد البديل المناسب. كلهن متشابهات حد الحزن. لم يكنّ نساءً مفرحات، كن زوجات لهن طعم التكاثر وغريزة البقاء. لم أجد بينهن امرأة لها وجود الاقتراب أو حتى حس الإحساس.

كنت أحزن على مساحيق الجمال الخارجية، وأحسد قدرتها على الإخفاء. تلك المساحيق كانت تقربهن من الغرائز أكثر من اقترابنا من النساء.

يختفي هذا سريعًا وتعود إليّ كل البلاهات، وكل رعبي من نار جهنم المستعرة، وخوفي من أن أهوي في جهنم سبعين... لم أعد أتذكر عدد السنين أو الأذرع أو الفراسخ. أستغفر الله وأستغفر الله وأستغفر الله، وأطلب رحمته على ما أنا فيه من إثم وذنب كبير. أطلب رحمته، إنه أرحم الراحمين.

فكرت في أن أتحدث مع والدتي عن اختلاف الأفكار وتغير بعض المفاهيم، لكني لم أتكلم معها. كنت أجدها جدارًا رائعًا مغلفًا برخام مصقول من الإيمان والخبرات في الحياة وسنوات العمر والكثير من الأشغال المهمة التي لا تعنيني بأي حال من الأحوال، كما أسمعهم يقولون دائمًا في أحلامي الكثيرة.

لم أستغرب، فإيمانها بالله يعطيها القوة على مواجهة الحياة باقتدار وحكمة. وأعتقد أن الله يزيد من قوتها بقدرته عز وجل. وهي تستمر في تمسكها بإسلامها، وتربيتي بين الحين والآخر متوكلة على الله، ثم مساعدة الخادمة الإندونيسية الطيبة، والخادمات الأخريات اللاتي تناوبن علي بعد ذلك وإلى الآن. وهن جميعهن سخّرهن الله

عز وجل لخدمتها وللعناية بي، وهو القوي العزيز. لذلك لم أكلمها واكتفيت بالدعاء لهـا بالتوفيق. ثم ابتعدت عنها قدر المسـتطاع، واستغفرت الله كثيرًا، فهو أرحم الراحمين.

كل ما كان يهمنـي في تلك اللحظة يا دكتور هـو كمية اللحم التي سـتتوفر غدًا في الغداء ونوع طبخ الرز، فقد كنت لا أحب أن أتضور جوعًا.

٣٧

إذا كان النظر إلى النساء حرام، ومصافحة النساء حرام، وصوت النســاء عورة، والحديث مع النساء حرام، والجلوس مع النساء في مكان عام لا يجوز، فأنا أرى أن النســاء أســوأ من الخنزير. أقصد أســوأ من أكل لحم الخنزير. يبدو لي أنني قد جدفت. أســتغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم.

يجــب ألا أفكر في هــذا الاتجاه. يجب أن تعرف يــا دكتور أنني مســحت صفحتين بها مثل هذه التصــورات الغريبة التي أغواني بها الشــيطان عليه لعنة الله. وهي ربما تكون أحكامًا فردية دفعني الشــيطان إلى تركيبها بهذه الصورة المزرية. أعوذ بالله من الشيطان الرجيــم. ما هذا الكفر الذي يعتريني في التفكير؟ لا حول ولا قوة إلا بــالله العلي العظيم. كم هو لعين هذا الشــيطان! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. أعوذ بالله من الشــيطان الرجيم. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

يجب أن أستغفر الله. صليت أربع ركعات هذه المرة، وتوجهت إلى الله بقوة، واستغفرت وبكيت، حتى شعرت باسترخاء يتسرب إلى جســدي، لأتمدد بعدها وأذهب في نوم مريح، ولم أشــعر بمن حولي.

نهضت بعد ساعة ونصف وأخذت عهدًا على نفسي بألا أقول تلك الأفكار الشيطانية لأحد. حتى لا يشمت الأستاذ رفعت، ذلك العلماني الكلب، بي. ويبدأ في التندر علي وكأنني قادم من عالم آخر. كل الذي أطلبه هو الإسلام الصحيح، بالابتعاد عن النساء وإغوائهن الجنسي الآثم الذي يميت القلب، كما يقول دائمًا إمام المسجد!

فأنا فعلاً أخجل منهن. أشعر بحرج شديد وتعتريني تلبكات في المعدة تدفعني إلى التأتأة، ولا أقوى على الكلام بالطريقة الصحيحة. ورغم ذلك، عندما تزوجت فوجئت بمقدار الجرأة الذي لدي. تعودت بعد ذلك على النظر إلى النساء في الخفاء، وخطف صورة متكاملة لجسدها من نظرة واحدة حتى لو كانت تلبس العباءة. لقد أصبحت خبيرًا في هذه النظرة، ولم أعطِ خبرتي هذه لأحد.

٣٨

يبدو أنني اعتدت على عـدم المراقبة من ثقب الباب. لم يعد يهم ما يحدث في الصالة. كلما تعودت عـلى الكتابة قل اهتمامي بالنظر إلى الصالـة. اكتفيت بالنظر إلى ثقب البـاب من مكاني. مع الأيام وكثرتها المتراكمة بيني وبين زوجتي أصبحت تقريبًا لا أعرفها، ولا أتذكر ملامح وجههـا. لقد دفعتني بقوة لأبتعد عنها. تقدمت بعد ذلك صور النساء اللاتي كنت أصادفهن متلحفات بعباءتهن، وأنا ذاهب إلى المسـجد للصلاة، أو وأنا عائد من العمل. كانت الصور تتراكم في ذاكرتي وتتشكل في أحلامي.

أجدني أضاجع كل واحدة في أحلامي. لم أكن أختارهن، بل كن يتقدمن إلي في الحلم طواعيةً، وفي أحلام كثيرة أكتشـف نفسي على السرير بجوار إحداهن.

لم أدع واحـدة في ذاكرتي إلا وقد نامـت إلى جواري في السرير. ضاجعت كل نسـاء الحي في أحلامي. كـن يتناوبن علي كل ليلة، خصوصا في الليالي البـاردة الطويلة، حيث تتمدد الأحلام وتأخذ كل نومي.

كانـت زوجتي بجـواري ولا أشـعر بها. أحلامي الجنسـية ومغامرتي الغرامية التي كانت بـلا كلمات تأخذ كل تركيزي. لقد

كانت النســـاء كلهن بلا اســـتثناء لا يتكلمن كثيرًا. الرغبة الجنسية تدفعهن وتدفعني. أستمتع بها كثيرًا. أيام وأسابيع، أكثر من تسعة أشـــهر وأنا أحلم بالجنة، وأمارس الجنس مع نساء من كل الأنواع والأشكال.

نحل جسدي من الاحتلامات الكثيرة التي أرهقتني ودفعتني إلى الأكل بصورة جنونية. أصبحت أتتبع كل المقويات الجنسية، وكل الفواكـــه والأكلات التي "تقوي الباءة في الفراش" كما يقول إمام المسجد. اهتممت بجميع الأكلات البحرية وغيرها من المنشّطات. ونظرات زوجتي تســـتغرب مني بين الحين والآخر، ولكنها كانت تتجاهل ما تراه، وتســـتمر في تقمص دور المـــرأة الحكيمة التي لا تخالط ســـوى العجائز بحكمتهن المتناقصة. وتبدو لي كأنها تتحول بالتدريج إلى صورة مصغرة من والدتي. وفي أحيان أشعر أن الخوف منها بدأ يتشكل ببطء.

كنـــت بـــدوري أتجاهلها تمامًا كـــما تفعل. لم أكـــن أفهم لماذا لا تتحدث عن ســـبب هجري لها؟ يبدو لي أنهـــا لا تطمح إلى الجنس ولا في الأولاد، وكل طموحها أن تكون متزوجة فقط. وفي أحيان أشعر أنها ربما تشـــوهت في تربيتها، وأصبحت مسخًا لا يعرف ما يريد في الحياة مثلي تمامًا.

في أوقـــات، تبدو لي كأنها تربت على أن تكون خادمة من الطراز الأول. قتلت هذه التربية فيها كل الطموحات والإحساس الحقيقي بالحياة. حتى أنا لا أعرف ما الطموح أو الإنتاج أو أي شيء من هذا القبيل.

أنا أســـمعها واعتبرها كلمات مبهمة. أحيانًا أستخدمها في النت

وأتشدق بها في المنتديات بلا شـــعور حقيقي بوجودها في الحياة أو حتى معرفة الهدف منها. لم تكـــن تعنيني الحياة، فالإيمان بالله يملأ قلبـــي ويدفعني إلى الاستســـلام لإرادته عز وجـــل، وتقبل الحياة بحلوهـــا ومرها. لم يكن الفهم مفروضًا عـــلي، ولم أكن أنا مهتمًا به مطلقًـــا. لذلك كنت أعذر زوجتي وأتجـــه إلى الأحلام، لأضاجع نساء الحارة والحارات المجاورة بلا عناء، وكأنني في جنة الخلد.

ومع القنـــوات الفضائية أصبحت النســـاء أكثر وضوحًا وأقل إزعاجًـــا في التخيل. لم أتـــرك مذيعة أو مقدمة برامـــج أو ممثلة في القنـــوات الإخباريـــة أو القنـــوات الأخرى إلا ونمـــت معها في أحلامي. لا أعرف كيف أتتني هذه القدرة، ولكنها كانت تتملكني أكثر من تحكمي بها. كنت أهـــرب من الأحلام إلى النوم بعد تعب شديد.

استمريت أكثر من سنتين في التنقل بين النساء في أحلامي دون أن أنظر إلى زوجتي. سقطت من أحلامي وبعدت كثيرًا من أمامي. تراكمـــت الخطوات بيننا إلى درجة لم تعـــد ملامحها واضحة. تظهر لعيني في بعض الأوقـــات وكأنها مصدر غريب لصوت أعرفه منذ زمن. ومن ذلك البعد لم تعد مغرية لي تمامًا. فقدت بريقها مثل نساء الأحلام اللاتي لم أحلم بأي واحدة منهن مرتين. كلهن متشابهات. هذا ما اكتشفته في النهاية.

شعور بالتعب والقرف يعتريني. فأنا لم أكن أتكلم مع أي واحدة منهن. كلهن يطلبن الجنس، وأنا أيضًا لم أكن أهتم بهن. كنت أهتم بأجســـادهن فقط وبمتعـــة الإنزال، إلى أن أصبـــت بالملل. ولكن أحلام النوم الجنســـية استمرت رغمًا عني دون عناء. مع الوقت، لم

يعد النوم يخرجني من الأحلام أو يشـــكل لي راحة بعد تعب. لقد تحول إلى عذاب مســـتمر. أصبح نومي قليلاً. داخلني الخوف من النوم.

لم أشـــتكِ لوالدتي من ذلك. كنت أنهض من الأحلام مباشرة، بـــدون أن أذهب إلى النوم. تحولت الأحلام إلى كوابيس جنســـية، خصوصًا عندما بدأت أمارس الجنس مع جارتنا أو زوجة زميلي في العمل، رغم أني لم أرها إلا مرة واحدة وهي في كامل حجابها. لقد تمكن مني الشيطان عليه لعنة الله.

هل تعرف يا دكتور أننـــي أصبحت لا أرى زوجتي وهي تقف أمامي؟ نســـيت تمامًا أنها موجودة في البيت. كنت أنظر إليها كشيء مفقود في هذه الحياة المتشابهة. فقد أصبحت تشبه كل النساء اللاتي يأتين لوالدتي. لم أعـــد أفرق بينهن. إذا كشـــفن عن وجوههن أو كشـــفن عن أجسادهن. كلهن نساء لم أجد بينهن أي امرأة لها طعم اللقاء.

٣٩

كنت أراقب من ثقب الباب زوجتي وهي تتعارك مع جسدها وأنفاسها والخادمة وأفكارها المشوّهة. أحزن عليها كثيرًا وأعتبر أنها ضحية رغم أنها الجلاد. وفي أوقات، أعتقد أن الله عندما خلق زوجتي وهبها أشياء جسدية ضخمة، وأعطاها قدرة تحمل رهيبة وعجيبة جدًا. فهي تستطيع نقل كميات الشحوم المتراكمة على جسدها بكل قدرة واعتزاز. ولكنها بالرغم من ذلك مخلوق حساس جدًا ومرهف بصورة غير معقولة. فمهما كانت تخفي من ألم، ومهما بلغت قوة شخصيتها، فإن نقطة ضعفها مشاعرها وأحاسيسها التي تغلفها بتشوهات فكرية وتكبر واعتزاز غبي بالنفس. عرفت ذلك لأنني مثلها تمامًا، وفي أوقات أشعر أنني أسوأ منها.

وهذا الشعور كثيرًا ما يدفع والدتي إلى احتقار زوجتي، وربما احتقاري. وهو أيضًا ما يدفعني أنا إلى اتخاذ نفس الموقف من زوجتي بدون وعي، ولكني أخاف الله رب العالمين وبارًا بوالدتي.

كنت لا أجيد الحديث معها. ولا أعرف كيف أجعلها تعبر عن مشاعرها، إلى أن أصبح من السهل جدًا أن تنجرح. ومن السهل عليها أيضا أن تسامح وتقع فيما يشبه الحب، لتعاود العطاء وتسامح وتغفر وتنسى. لكني في النهاية كنت أدرك أن الجراح

بداخلها ستظل باقية. وستتراكم عليها الجراحات الأخرى القادمة التي أقصدها والتي لا أقصدها.

الآن، ومن ثقب الباب، أشعر وكأننا نحن الاثنان في قفص والجميع ينظرون إلينا. ويقومون بزيارتنا لكي يتأكدوا أننا ما زلنا في القفص كما هي العادة القديمة، أو كما كان القدماء يرغبون. لا أعرف من هم القدماء، ولا من أي سماء نزلوا، ولكنهم دائمًا يراقبوننا بصمت يدفع إلى الجنون.

عدت إلى السرير وتمددت بعد أن آلمتني قدماي من النظر من ثقب الباب. تقلبت وحيرة كبيرة تذكرتها ارتسمت أمامي عن رغبتي في أن يكون هناك توافق بيني وبين زوجتي. كما كنت أسمع عنه تلك الأيام في الدول الغرب الكافرة كما يقول إمام المسجد. ولكن صوتًا يدوي في أذني يجبرني على الاعتقاد بأن التوافق يجب أن يأتي بعد الزواج، كما عرفت وتعلمت من الحياة ومن إمام المسجد. الزواج أولاً، ثم يأتي الأولاد والحب والعشرة وكل أمور الدنيا الأخرى. حتى الموت يأتي بعد ذلك. أعجبتني حكاية الموت، فيبدو أنني تماديت فيها. ولكن المهم ما تعلمته من والدتي وصديقاتها وبعض الناس في الشارع، وأعتقد أنهم حكماء، فأعمارهم كبيرة، وتبدو خبرتهم في الحياة أطول.

لذلك كنت قبل الزواج مهتمًا بأن أنقل لزوجتي كل ما أعرف، وكنت أعتقد أن هذا سيضيف إليها الكثير من المعرفة. تحدثت معها عن كل الأمور، حتى السياسية التي لا أعرف عنها الشيء الكثير. ستة أشهر كانت فترة الخطوبة. حرصت على الحضور كل أسبوع، وأحيانًا كانت زياراتي مرتين في الأسبوع. عندها تلاحقني نظرات

والدتي بتعجب، فأعود إلى الاكتفاء بزيارة واحدة في الأسبوع.

رغم كل الكلمات والحكايـات التي كنت أرويها لزوجتي تلك الفترة، اكتشفت أن كلماتي كلها كانت مهملة. واليوم أعتقد جازمًا أنها ربما لم تسمعها حتى.

كانت تبدي اهتمامًا من الخارج، ولكنها في الداخل كانت متيقنة أنها يجب أن تحافظ على هذا العريس:

- عريس الغفلة.

اليـوم أدركت أنني عريس الغفلة. يداخلني هذا الشـعور بين فترة وأخرى. خصوصًا عندما أجد زوجتي مستسلمة لكل شيء، وفاقـدة للرغبة في عمل أي شيء يبتعد عـن الطبخ والصراخ على الخادمة عند تنظيف البيت.

تناقشـت معهـا في بدايات الزواج، وسـألتها عـن الطموح والمواهب والقدرات. لم تتحدث ولم تجب، واكتشـفت أنها تنتظر مني أن أكمل رغم أنني كنت أسألها عن هذه الأشياء. صمتّ وأنا أنظر إليها بذهول. كانت ليلة قاسـية عـلي. لم أتكلم معها بعدها لأيام. وشعرت أنني أبتعد عنها قليلاً.

٤٠

بـــدا لي اليوم مشرقًا، فقد كانت الصالـــة عندما نظرت إليها من ثقب البـــاب أكثر بهاءً وليس بها أحد. يبـــدو أن والدتي ذهبت إلى الطبيب مع زوجتي. كانت الصالة صامتة، ورائحة النظافة تصلني من تحت عقب الباب. انســـحبت وجلســـت بجوار الباب المقفل، ونظرت أمامي متحـــسرًا. لقد تذكرت أنني شـــخصيًا ليس لدي طموح. ومواهبي لا أتذكرها وإن كنت أحاول في بعض الأوقات. وأعتقـــد جازمًا أن قدراتي الجســـدية والعقلية محدودة. أعرف هذا تمامًا وأنا أومن بأن الله عز وجل قد وهبني ما أســـتحق وما قدر لي من الإمكانات، وأن الله قادر على أن يوفقني ويرشـــدني إلى الطريق الصحيح.

ولكني كنت متشـــوقًا بأن أســـمع عن قدرات زوجتي، وكيف من الممكن أن نتعاون على اكتشـــافها، واكتشـــاف قدراتي أنا أيضًا لو اســـتطعنا، هذا إن كانت موجودة أصلاً. ولكن صدمتي كانت عندما عرفـــت أن زوجتي، مثلي تمامًا، لم تكن تـــدرك معنى أن لها قـــدرات أو مواهب من الممكن أن تنميهـــا. لم أكن أتوقع أن يكون أحد مشوهًا مثلي.

هـــذا ما فهمته منها. في بعض الأيام كانت تأتيني بعض الأفكار

تدفعني إلى الاعتقاد بعـــدم فهمي لها. فقدراتي العقلية وقدرتي على التحليـــل محدودة، وربما لم أفهـــم أو لم أتمكن من شرح ما أرغب في معرفته عنها. لذلك عدت إلى نفس الموضوع بعد أســـابيع وأعتقد ربما أشهر. كانت إجابتها سؤالاً لي:

- وما مواهبك أنت؟
- أنا؟
- نعم. أنت.
- أنا.. كنت أحب الأعمال الخشبية.
- نجار؟
- أحب أعمال النجارة.
- تطمح بأن تكون نجارًا؟
- ليس طموحًا، ولكني أجد في الخشب متعة.
- رغبتك في الحياة كلها هي أن تكون نجارًا..!

كانت ضحكتها الكبيرة الساخرة تمزقني ودفعتني إلى الاندهاش. أعتقد أنها لم تسمعني عندما أجبتها:

- لا أعرف بالتحديد، ولكني أحب النجارة.
- أنت تريد أن تكون نجارًا فقط.

قالتها باستخفاف، واســـتمرت في الضحك وكأنني قلت نكتة مفاجئة. ابتســـمت مجاريًا لها، في البدايـــة، إلى أن هدأت قليلاً، ثم سألتها ببطء وبعض الحزم:

- لم تجيبي أنتِ.. ما هوايتك أنتِ؟
- أنا لا أحب النجارة.

أجابـــت بسرعة وعادت إلى ضحكتهـــا وكأنها تهزأ بي. نهضت

بعدهـــا واتجهت إلى المطبخ لتحضر أشـــياء مختلفة كانت قد أعدتها من قبل. عندما عادت كانت ضحكتها معلقة على وجهها، وبدت نظراتها وكأنها كسبت المعركة.

لم أتحدث معها بعـــد ذلك في هذا الموضـــوع. ولكنها هي التي تحدثت عـــن النجارة مع والدتي ومـــع كل صديقاتها، وأعتقد ربما حتى زوجات زملاء العمل الذين زاروني في البيت. كلهم وصلهم أن أهم أحلامي في الحياة هي أن أصبح نجارًا!

كانت تعتبر هذا من قبل الضحـــك والتندر وخفة الدم. ولكنه ألم ينحفـــر بداخلي ولا يترك لي مجالاً للهدوء. ضحكت معها كثيرًا، وحاولت أن أغيّر فكرتهـــا عن الموضوع وأشرح لها ما كنت أقول. لكنهـــا لم تترك لي فرصة. تدعني دائمًا مرتبـــكًا لا أعرف ماذا أفعل سوى الابتعاد خطوات أخرى عنها.

٤١

أعرف أن الحب بالنسبة لزوجتي، مثل جميع النساء، هو أجمل ما في حياتها، ولكن بالنسبة لي فهو جزء من حياتي مثل بقية الأجزاء الأخرى. لذلك كان من السهل علي أن أنسى تمامًا ما قلت. وفي أوقات كنت أهجرها لأيام. فتبدأ بالانهيار وترى أن حياتها قد انتهت. ولكن القدرة التي تملكها زوجتي، والممنوحة لها من الله، تجعلها تستطيع أن تكمل باقي حياتها رغم أن قلبها قد انجرح.

لم أكن أسيطر على أنواع العنف الذي تتعرض له زوجتي على يدي والدتي أو مني أنا، أو حتى من نفسها. فهي كثيرًا ما تكون قاسية على نفسها. حتى إنني أعتقد أن نهمها في الأكل هو انتقام من نفسها، ورغبة في تعذيب جسدها على وضعها المحزن.

كنت أنا أيضًا أقسو على نفسي بتلك الطريقة. أستمر في الأكل بنهم طوال أيام. لدرجة أنني أشعر في أوقات أن معدتي ستتمزق من كثرة الأكل. وإلى اليوم، قد أستمر في الأكل لساعات متواصلة دون ملل أو قرف من رائحة الأكل أو طعمه. أعتقد أن هذا عقاب من السماء أنزله الله عليّ أنا وزوجتي لما نرتكبه في حق بعضنا من ذنوب وآثام. ولكن الله غفور رحيم قادر على رحمة عباده عز وجل.

كنت أشاهد زوجتي تقضم أظافرها، وتلتهم سندوتش

الشـــاورما في ثلاث لقم فقط. يجب أن أســـأل إمام المسجد في هذه المساءلة. ربما أفتى بجديد يســـهل أمر الاستغفار من هذه الذنوب النفسية.

بالطبع لن يفتى أحد بهذا، ولكننـــي يجب أن أتأكد من أنني لن أدخل النار بتعاملاتي القاســـية تلك نحو زوجتي. وإن كنت أشعر أنني يجب أن أســـتغفر الله عن كل ما سببته لها من ألم. لذلك قررت في كل مرة أتخاصم معها أن أســـتغفر الله على الكلام الذي قلته لها وجرحي لمشاعرها، فالله غفور رحيم ولقد وسعت رحمته كل شيء، ويغفر لي زلاتي، ويغفر لها زلاتها علي. فهي كثيرًا ما تفرح لسقوطي في بعض الأخطاء الإنسانية البسيطة، وتعتبرها نقاط ضعف تذكرني بها في كل وقت مناسب وغير مناسب.

جعلتني أشعر بأني مراقب. وأنها في انتظار أن أخطئ لتنتقم مني بكل ما تملك من ألفاظ وكلمات منحطة ونظرات ولمزات بين الحين والآخر، وفي جميع الأوقـــات الممكنة. لقد مللت حالة الخبث التي نعيش نحن الاثنان فيها.

٤٢

كانت الخطـــوات تتراكم فيما بيننا عند كل موقف أكتشـــف فيه مدى عمق الاختـــلاف بيني وبينها. لم تكن ســـيئة، ولكنها كانت مختلفـــة عني. وأعتقد أنني كنت كذلك. اشـــتركنا في الجنس فقط، واختلفنا في كل أشـــياء الحياة الأخرى. ولكنها تمادت كثيرًا عندما علمت بوجود عيب خلقي في قدرتي على الإنجاب.

أنا الذي أخبرتها بـــما قاله الدكتور. تكلمنـــا بعض الوقت عن أمور مختلفة في البيت، من ستائر إلى أشياء تافهة كدعاسات المدخل وبعض أنواع المناديل. لأجد نفسي أتحدث عن قدرتها على الإنجاب وعـــدم قدرتي على الإنجاب. كنت متعبًـــا وكانت متعبة، فلم تهتم كثيرًا بما قلت. نظرت إليّ وذهبت لتنام ونســـيت أنا الموضوع، إلى أن بادرتني بعدها بأســـبوع عندما تهكمـــت عليها كعادتي الموقرة، فتمادت بقسوة هذه المرة وقالت:

- لقد رضيت برجل ناقص.
- ...
- .. رضيت بالهم ولكن الهم لم يرضَ بي!

جن جنـــوني وتلعثمت الكلمات في فمـــي. كانت صدمة كبيرة تلك الكلمات ونظراتها التي تصوبها نحوي. كدت أن أصفعها على

وجهها، ولكن الخوف تجسد أمامي كمارد وجدار متحرك دفعني إلى الهروب من البيت حاملاً جسدي الضخم وكلماتها القاسية وألمي الكبير.

سرت في شوارع البغدادية الشرقية بلا وجهة محددة. أسير وأنفاسي تلاحقني وأنا أنظر إلى العابرين والمحلات وكأنني أشاهدها في التلفزيون. صور صماء باردة ومتحركة كأنها ستنهار أمامي بعد قليل.

دفعني التعب إلى الارتماء على كرسي مقهى بجوار شارع المدرس بالقرب من مسجد اللنجاوي. هذه أول مرة أجلس فيها هناك. طلبت شايًا ولكن المباشر أحضر لي (أرجيلة معسل). نظرت إليه ونظر إليّ بسرعة وبلا اهتمام. قدّم مبسم الشيشة وهو ينظر إلى رواد المقهى الآخرين. تناولت المبسم ونظرت إليه عن قرب. ترددت بعض الوقت ولكني في النهاية بدأت التدخين. بعد أول سعلتين، تعودت على طعم معسل التفاحتين الفواح. وضعت حينها رجلاً على أخرى واستمريت في التدخين إلى أن تلاشى الهم بين سحب الدخان المتصاعدة. واتضح لي بعد بعض الوقت الجرم الذي ارتكبته. لقد دخنت المعسل والتدخين حرام.

ركبني هم الاستغفار، وأصبحت لا أعرف ماذا أفعل وإلى أين أذهب. فالساعة كانت العاشرة مساءً. ولا يوجد مسجد مفتوح من الممكن أن أصلي فيه ركعتين وأستغفر ربي كما أفعل دائمًا. ولكني اتجهت إلى البيت وشعور بأن ابتعادي عن زوجتي زاد خطوتين عما قبل.

٤٣

انقطع الحوار مع زوجتي منذ سنوات. وأصبحت هي متوحشة نحوي بصورة منفرة. لم تعد تهتم بشيء أكثر من أن أشعر بالقرف. لقد هجرتها تمامًا ولم أعد أشعر برغبة نحوها، وأعتقد أنها هي أيضًا تبادلني نفس الشعور، ولكنها أضافت إليه طريقتها الغريبة والسلبية في التعامل. فهي تحيل كل شيء مفرح تقريبًا إلى خطأ أكون أنا السبب فيه. عندما لا تجد ما تأكله تعتقد أنني أنا أتحمل مسؤولية ذلك، لأنني لم أذهب إلى السوق في الوقت المناسب. كنت عندها جالسًا في الصالة كما هي العادة. نظرت إليها وسألتها بلا اهتمام:

- ألدينا فشار؟
- كيف يكون لدينا فشار وأنت لم تحضره من السوق؟
- ولكني أحضرت صندوقًا كاملاً منه آخر مرة!
- إذًا اذهب وابحث عنه بنفسك.. ماذا تنتظر؟
- ولكني أسألك أنتِ؟
- لا تتخابث. أنت تعرف أن لدينا فشار. لماذا تسأل؟
- أسألك أن تعدّي الفشار.
- اسأل الخادمة مبروكة.
- الخادمة هي التي ستعدّ الفشار؟
- وماذا في ذلك؟

- ... لا شيء.
- ...
- لا شيء.

لم أكمـــل. كنت أنتظر فقط بعض الوقت كي أهدأ قليلاً لأخرج من البيت، وأبتعد خطوة منها كما هي العادة. لقد ابتعدت خطوات كثيرة جـــدًا حتى بدت لي زوجتي على بعـــد أميال ولم تعد ملامحها واضحة لي.

حيرة كبيرة ترتسم أمامي وتساؤل يبدو كجدار أصطدم به. هل كنت أنا الســـبب في أن تكون بهذه الحدة؟ لم أعد أهتم بكلماتها كما كنت من قبل. أبتعد فقـــط وقلق العالم ينصب على رأسي. كان ثمة قلق بســـبب الاســـتمرار. هل هو الخوف أم الضعف أم أنني فعلاً تحـــت أمر والدتي وهي التي تحدد ما أريد؟ ولكن أكثر ما يحيرني أن والدتي أصبحت مع الوقت أكثر صمتًا وأجدها تتهدم باستمرار.

شـــكرًا لك يا دكتـــور، فعلاً لقد ارتحـــت كثيرًا بعـــد الكتابة، وأصبحـــت أكثر هدوءًا وأكثر قربًا مني، كـــما أني أصبحت وحيدًا في غرفة النوم. أنهض كل صبـــاح أنظر من ثقب الباب لأتأكد من صمت الصالة. أذهب بعدها إلى العمل وأعود في آخر اليوم وكأن شيئًا لم يكن..

عبد الله التعزي

هيوستن-تكساس

١٠-١٢-٢٠١٤م

لم أكمل. كنت أنتظر فقط بعض الوقت كي أهدأ قليلاً لأخرج من البيت وأبتعد خطوة منهـا كمـا هي العادة. لقد ابتعدت خطوات كثيرة جدًا حتى بدت لي زوجتي على بعـد أميال ولم تـعد ملامحـها واضحة لي

حيرة كبيرة ترتسم أمامي وتساؤل يبدو كجدار أصطدم به. هل كنت أنا السبـب في أن تكـون بهذه الحدة؟ لم أعد أهتم بكلـماتها كما كنت من قبل. أبتـعد فقط وقـلق العالم ينصـب على رأسي. كـان ثمة قلق بسبب الاستمـرار. هل هو الخوف أم الضعف أم أنني فعـلاً تحت أمر والدتي وهي التي تحدد ما أريـد؟ ولكن أكثر ما يحيرني أن والـدتي أصبحت مع الوقت أكثر صمتًا وأجدها تتهدم باستمرار .

ISBN 978-9938-833-45-4

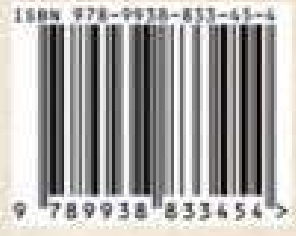

أثر

عبدالله التعزي
حرية الأبواب المغلقة